روايات مصرية للجيب



د. أحمد خالد توفيق

فانتازيا

هى والأنا

مقدمة

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق .. إلى حد يخطف الأبصار .. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا .. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء .. لكن لا بد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها .. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة .. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق .. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر .. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء .. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة ..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا .. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط ، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب ، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام ، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع ، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة ، بل يشارك فيها كذلك .. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا .. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا) ..

إن (عبير) كريمة النفس ، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير .. سوف تصحبنا معها .. سوف نعبر معها

عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما .. سوف تقابل - ونحن معها - العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين) .. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان .. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته .. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة ، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب .. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة ، أو تهدد المقصلة عنقها ، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء ، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب) .. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول ..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى : لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى : لا حدود ..

إن جرس المحطة يدق ، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى ..

1- لقاء تأخر ..

تنظر لها السكرتيرة بعينين زرقاوين باردتين من فوق إطار العوينات المنحدرة على قصبة أنفها .. كلهن لهن عيون زرق هذه الأيام ولا يمكنك أن تعرف الحقيقة أبدًا ..

تتوقف الفتاة عن الكلام فى الهاتف وتزيح قدح (الكابوتشينو) الموضوع أمامها ، ثم تسأل (عبير) :

ـ « طلباتك ؟ »

إذن هى من النوع الذى يقول (طلباتك ؟) مثل الأخرى .. شريف يعيش فى عالم متشابك صناعى معقم تحيط به فتيات يلبسن عوينات رقيقة ويقلن (طلباتك) ..

ثم تلك الأخرى التى تلبس الجينز والبادى ولها شعر منكوش مصبوغ بلون أشقر .. ماذا تريد ؟.. ولماذا تقف جوار المكتب ترمقها ولا ترفع عينيها عنها ؟.. لا تكره (عبير) شيئًا سوى الذين ينظرون لها فى فضول كأنها أغرب شىء فى العالم رأوه فى حياتهم .. دعك من أن فى هذا كله طابعًا لا يخفى من الهستيريا .. التمثيل ..

ـ « هل المهندس (شريف) موجود ؟ »

ـ « أقول له من ؟ »

ترددت حينًا ثم بللت شفتها السفلى بلسانها ، وقالت :

ـ « (عبير) .. »

رفعت الفتاة الأولى السماعة وتكلمت .. بصوت غير مسموع ، ثم رفعت عينها نحوها وأشارت بترفع إلى الردهة الجانبية ..

تمشى (عبير) فى ممر ضيق .. على الجانبين غرف لها باب زجاجى .. عشرات المكاتب .. يذكرها الأمر بعشرات الأفلام الأمريكية التى رأتها .. هذا جو متصنع غير أصيل .. لكن إلى أين ؟

هنا وجدت أنها تنظر إلى (شريف) الذى فتح باب مكتبه ووقف ينتظرها !

* * *

بطبيعة الحال كان اللقاء مربكًا غريبًا ..

هذا الرجل كان زوجى وكان يعرف أدق أسرارى .. فجأة .. نحن غريبان بالكامل .. ليس من حقه أن يلمس يدى أو يغلق باب مكتبه علينا ..

تجربة عجيبة هى .. ليست أليمة إلى هذا الحد لكنها غريبة ..

رواية (تولستوى) الضخمة التى قرأتها عدة مرات ، وخططت فيها آلاف الخطوط ، ورسمت على هامشها رسومًا عديدة بيدك الساذجة المتعرجة .. هذه الرواية باعتها أمك لتاجر الأشياء

المستعملة .. بعد عامين وجدت ذات الرواية .. وجدتها عند بائع الكتب المستعملة .. مددت يدك تتصفحينها فجاء صوت البائع الصارم :

ـ « هذه ليست طماطم يا (أبلة) .. لا تتلفى الكتب ما لم تكن عندك نية الشراء .. »

نظرت له غير مصدقة .. الكتاب الذى كان لك وتعرفين كل صفحة فيه .. خطوطك فى كل سنتيمتر منه .. هذا الكتاب لم يعد من حقك أن تتصفحيه أو تطيلى النظر لـه .. فقط من أجل قهر هذا الشعور القاسى ابتعت الكتاب من جديد ..

هذه المرة لن تبتاعى (شريف) من جديد .. لقد انتهى كل شىء يا صغيرة ..

تجلس على مقعد دوّار متعب كأنها على صهوة حصان فى مباراة (روديو) .. لو ظلت جالسة دقيقة كاملة ولم تسقط فلها هذه البندقية (الونشستر) جائزة .. يا هوووووووه !.. ما أجمل حياة الغرب أيها العم (ماكماهون) العجوز ..

هو كذلك ـ (شريف) وليس العم (ماكماهون) ـ يجلس على مقعد مماثل ويضع قدميه على قطعة بارزة من المقعد ..

كان (شريف) محتفظًا بوسامته وأناقته .. يبدو مديرًا تنفيذيًا فى شركة أمريكية أكثر من أى شىء آخر .. ما زالت خصلة الشعر على جبينه تعطيه ذلك الانطباع بالطفولة ، وما زالت فى

عينيه تلك السذاجة التى تقول إنه لا يفقه شيئًا عن العالم الخارجى تقريبًا .. (فالنتين مايكل سميث) فى رواية (غريب فى أرض غريبة) .. الفتى الذى تربى فى المريخ ولا يعرف أى شىء عن طريقة حياة الأرضيين ولا قواعدهم ..

صمت طويل مربك ساد .. قطعه بأن قال :

ـ « هل تشربين شيئًا ؟ »

هزت رأسها أن لا ..

ـ « كيف حالك يا (عبير) ؟ وكيف حال ؟ »

ـ « بخير .. »

لسبب ما شعرت بأنها لا ترغب فى أن تسمح له بنطق اسم ابنتهما .. يجب أن تتكلم بسرعة .. يجب .. لا ينبغى أن يعتقد للحظة أنها جاءت تجدد الوداد أو تستجدى مالاً أو أى شىء من هذا القبيل .. مهمتها محددة شبه رسمية وعليه أن يعرف هذا .. رسمت على وجهها تعبير فتاة ترغب فى إصلاح جهاز الكمبيوتر الخاص بها ونظرت له فى حزم ..

رباه !.. لشد ما تحملت وقاومت .. لشد ما ضغطت على كبريائى كى آتى هنا ..!.. كم هو ثمن باهظ أدفعه لـ (فانتازيا) ..

قبل أن تفتح فاها قال باسمًا :

ـ « البرنامج ليس على ما يرام .. أليس كذلك ؟ »

نظرت له فى دهشة . وقالت :

ـ « كيف عرفت ؟ »

ـ « لأنك لن تأتى إلا لهذا السبب .. أنا أعرفك جيدًا .. »

قالت وهى تشعر بامتنان شديد لأنه أراحها من التفسيرات :

ـ « الكمبيوتر كله ليس على ما يرام .. يريدون منى أن أستبدل القرص الصلب .. هذا معناه مسح البرنامج .. »

ـ « هذا صحيح .. لكن الجهاز قديم جدًا على كل حال .. أعتقد أنه تداعى تمامًا .. »

ـ « والحل ؟ »

فكر حينًا ثم نهض .. اتجه إلى ركن المكتب وانتقى شيئًا يشبه الحقيبة ، ثم فتح الدرج وراح يعبث وسط مجموعة من الأقراص المدمجة .. فى النهاية دس قرصًا فى الشىء الذى اتضح أنه جهاز كمبيوتر محمول .. وراح يقوم بعملية ما .. ربطة عنقه تتدلى على لوحة المفاتيح فيزيحها جانبًا ويواصل ما يقوم به ..

سألته وهى تجلس على طرف المقعد :

ـ « هل هناك أمل ما ؟ »

قال وهو ينظر إلى الشاشة :

ـ « الحقيقة أننى وجدت عندى نسخة من البرنامج .. كنت أحسب أننى تخلصت من كل النسخ ، وأنت تعرفين أننى صرفت النظر عن الفكرة ، لكن هذه النسخة صالحة .. تعالى هنا .. »

نهضت (عبير) فى حذر ووقفت جواره .. نظرت إلى شاشة الجهاز المحمول فرأت أيقونة على سطح المكتب كتب تحتها DG..

أغلق الجهاز المحمول باسمًا ، فسألته :

ـ « المشكلة هى جهاز الكمبيوتر نفسه .. كيف أنسخ هذا البرنامج عليه وهو تالف ؟ »

قال وهو يصلح من ربطة عنقه :

ـ « لا مشكلة .. لن تنسخى أى شىء .. فلتحتفظى بجهاز الكمبيوتر القديم باعتباره (عشة) دجاج .. هذا الجهاز لك ! »

ووجدت الكمبيوتر المحمول فى يدها .. فهتفت وهى تثب للوراء كأنها قط مبتل :

ـ « مستحيل .. كم ثمن هذا الشىء ؟ »

قال محتفظًا بابتسامته الهادئة :

ـ « إنه باهظ الثمن .. لكنه يخصنى وقد انتويت أن أستبدل به واحدًا أحدث .. أرجو أن تقبليه وأعتقد أنك لن تجدى عسرًا فى توصيله إلى الأقطاب .. العملية سهلة يمكن أن يقوم بها أى طفل .. »

ـ « مستحيل .. »

قال فى برود :

ـ « لا أعرف طريقة أخرى لاستعادة البرنامج .. إما أن تأخذى الجهاز بما عليه أو تنسى الأمر .. »

ـ « يمكن أن أصلح الجهاز القديم وأنسخ عليه البرنامج .. »

ـ « لا أضمن أن يظل سليمًا أسبوعًا آخر .. هناك أشياء يعتبر إصلاحها حماقة ومضيعة للوقت .. »

ـ « لن أقبل هذا الشىء .. »

ـ « خذيه أو اتركيه .. أنت تعرفين جيدًا أننى لا أقدم هذه الهدية لأى غرض آخر سوى رغبتى فى أن أريحك .. لن أقبل ثمنًا .. »

كانت تعرف أنه صادق .. هو لا يريد منها أى شىء .. هو لا يقيم المال كما يقيمه الآخرون ، فقد كان طيلة حياته يجد ما يفيض منه .. لكن لماذا يتخلى المرء عن شىء باهظ الثمن كهذا ؟ هل لمجرد الشفقة أم المجاملة أم هو شىء آخر ؟

لا تدرى حقًا ..

كان الإغراء قويًا .. لن تعود هنا أبدًا فلماذا لا تأخذ ما تقدر عليه ؟ عندما يتعلق الأمر بفانتازيا فالأمر يختلف عن مجرد جشع مادى عادى ..

لقد نسيت أن تشكره أو تهز رأسها محيية .. فقط أخذت الجهاز .. هكذا نهضت ووضعت الحقيبة تحت إبطها .. نظرت إلى الأرض ولم تجد شيئًا تقوله على الفور ، سوى :

ـ « كيف ؟ كيف حال المدام ؟ »

كان سؤالاً غبيًا .. أغبى سؤال ممكن ..

لكنه قال وهو يدس القلم فى جيب قميصه ذى اللون السماوى :

ـ « لا توجد مدام .. لقد تم طلاقنا منذ شهرين يا (عبير) .. »

نظرت له لربع ثانية ، ثم سرعان ما خرجت من الباب ..

سمعته يناديها لكنها لم تتبين ما يريد ..

كانت تركض تقريبًا فى الطرقات حاملة كنزها ..

* * *

2ـ كابوس ..

هل تم الانتقال بسلاسة أم أنها تخيلت هذا ؟

هى تعرف أن الأمر رقمى .. أى إنه يجب أن يتم بذات الطريقة فى كل مرة .. لن يجعلها الجهاز الجديد تنتقل بسلاسة أكثر ما لم يكن شىء قد تبدل فى البرنامج .. لكن كل شىء حدث بسهولة فعلاً ..

هى الآن تقف فى فانتازيا .. الهـواء يطـير شـعرها وإلـى جوارها يقف المرشد ينظر لهـا باسمًا بتلك الطريقـة التى تقول (ثمة ـ خطأ ـ ما) .. لكنك لا تعرف الخطأ أبدًا ..

قال لها :

ـ « مرحبًا يا أليس .. هـا نحـن أولاء نعـود للأيـام الحلوة الخالية .. »

قالت فى تحفظ :

ـ « لقد غامرت فاستعدت البرنامج ومعه جهاز كمبيوتر أنيق .. »

ـ « حقًا .. جهاز أنيق عـالى القدرات .. لكن هل يدل هذا التصرف على شىء معين ؟ »

ـ « لا أهتم .. يدل على أنه مهذب للغايـة أو إنـه يشفق علـىَ للغاية .. لا أريد التكهن .. المهم أننى هنا والآن .. »

ـ « ألم تفكرى فى احتمال إضافى ؟ »

نظرت له طويلاً ولم ترد ، فقال :

ـ « هل كنت ترغبين فى الحصول علـى البرنـامج فقط عندمـا ذهبت ؟ هل كان هناك سؤال يعتمل فى عقلك الباطن ؟ ألـم تتلقـى الجواب عنه ؟ »

صعد الدم إلى رأسها .. ليس بالضبط .. لقد احتشد فـى خديهـا .. لم تسامح نفسها على هذا .. كان الاحمـرار نتيجـة الحيـاء لكنهـا نجحت بكثير من الجهد أن تحوله إلى حنق ..

ـ « أنت تهذى .. لست تافهة إلى هذا الحد .. لست بلا كرامـة إلى هذا الحد ! »

ثم أضافتْ :

ـ « ماذا حدث بعد ما أخـذت الجهـاز ؟ نسيت كل شـىء عمـا قاله (شريف) .. تركز كل تفكيرى فى الجهاز .. »

قال المرشد بذات الطريقة الخبيثة الغامضة :

ـ « نعم .. إن الدافع كان قويًا إلى حد أن الكبت كان أعلـى .. لم تجسرى على أن تعترفى لنفسك بشىء كهذا .. »

ثم سألها وهو يعبث بالقلم الجاف الذى يحمله (تك ـ تتك) :

ـ « هل رأيت أية أحلام أثناء الانتقال ؟ »

- « لا أعتقد .. تم هذا بسرعة .. ولكن .. أعتقد أننى رأيت نفسى راقدة على منضدة جراحة .. يبدو أنها جراحة تأخرت كثيرًا .. كان الجراح هو مدرس اللغة العربية فى المدرسة الابتدائية .. كنت خائفة ، لكنه قال لى : العملية سهلة يمكن أن يقوم بها أى طفل .. »

قال المرشد :

- « هذا هو عقلك الباطن يفصح عن مكنوناته .. أنت تحلمين بالعودة لشريف .. »

- « أنت مخبول ! »

- « وأنت تكبتين هذه الرغبة بقوة .. لا تعترفين بها لنفسك .. إن العمليةَ الجراحية هى الصيغةَ الرمزية لدى العقل الباطن ليرمز للزواج .. مدرس اللغة العربية يقول لك : العملية سهلة يمكن أن يقوم بها أى طفل .. من الذى قال لك هذه العبارة ؟ فكرى جيدًا .. »

راحت تفكر .. ثم تقلص وجهها .. هذا صحيح !

قالت فى ارتباك :

- « قالها (شريف) عندما كان يتكلم عن توصيل الأقطاب بجهاز الكمبيوتر .. ما هى المشكلة ؟ »

- « مدرس اللغة العربية هو أول رجل تعرفينه فى حياتك عن كثب .. لهذا اتخذت منه نموذجًا لى .. باختصار : هو رمز الرجل الدائم عندك .. فى حلمك هذا تنكر (شريف) فى شكله .. هكذا ظهر (شريف) فى الحلم .. حلم له علاقة بالزواج وهى قصة قد

(تأخرت كثيرًا) .. كما ترين أنت تحلمين بالعودة لشريف لكنك لا تعترفين بهذا .. »

قالت بمزيد من الارتباك :

- « أنت تزداد حماقة .. هذا لىٌّ لعنق الحقيقة بشكل مستفز .. »

قال فى تواضع :

- « ربما .. لست واحدًا من المختصين الذين ستقابلينهم اليوم .. لكن المعتاد أن ينكر الناس ما يجابههم به المحلل النفسى .. ينكرونه وهم يؤمنون أنهم على حق فى هذا الإنكار .. »

- « إذن ما المقياس ؟ لم يكذب أى طرف هنا .. لماذا لا يكون سبب إنكارهم أن هذا هراء فعلاً ؟ »

- « لا يوجد مقياس .. لهذا يحبو علم النفس حتى اليوم .. ولهذا هو أقرب للفلسفة منه إلى باقى فروع الطب التى تقاس فى المختبر أو بالترمومتر وعد النبض وجهاز الضغط والميزان .. لا يوجد اختبار معملى يقيس الهستيريا .. لا يمكن تصوير الاكتئاب بالأشعة .. هذه هى المشكلة .. »

حكت رأسها ، ثم عادت تسأل :

- « قلت إننى سأقابل مختصين اليوم ؟ »

- « نعم .. لهذا سوف أتركك الآن .. فقط أنصحك أن تصغى جيدًا وأن تتعلمى شيئًا مما يقال .. »

* * *

للمرة الثالثة كانت الثعابين ..

الثعابين التى تملأ الردهة وتزحف فى كل مكان .. هل الثعابين تتسلق الجدران ؟ ربما .. إنها تفعل هذا هنا على الأقل ..

كانت تقف على باب المطبخ عالمة أنها لن تستطيع الوصول إلى غرفتها أبدًا .. حافية القدمين وهذا يجعلها هشة جدًا .. الهشاشة تبدأ بقدمين عاريتين ..

كلهم هناك فى الجانب الآخر من البيت يصخبون ويتكلمون بصوت عال .. تعالوا وساعدونى .. إن أباها هناك .. لابد أن أباها سيعرف ما يجب عمله ..

فتحت فمها لتناديه . لكن أين ذهب صوتها ؟ لا صوت على الإطلاق .. إنها تصرخ لكن لا يخرج شىء ..

قدماها ثقيلتان .. حركتها غبية جدًا ..

الثعابين جاءت على رائحة الأسماك .. أسماك ؟ هل كانت هناك أسماك ؟ لا تذكر .. لكن رائحتها عطنة تملأ المطبخ من ورائها ، وهى تعرف يقينًا أن خالها يكره أغانى (أم كلثوم) ..

تصرخ من جديد ..

لكن .. إنها قادرة على أن تمشى على الجدار .. لم تدر من قبل أنها قادرة على ذلك لكن هذا حقيقى ..

يمكنها أن تتسلق الجدار وتلحق بالأسرة ..

تمشى فى حذر وترى الدنيا مقلوبة .. تدنو من المكان الذى تجتمع فيه الأسرة ..

ما هذه الشقة ؟ ليست شقة أسرتها على الإطلاق .. هناك لوحة عملاقة على الجدار تظهر فتاة طفلة فى حقل تجلس جوار بئر .. هناك مصباح قديم كئيب الضوء يتدلى من أعلى .. حذار من أن تلمسه وإلا صعقتها الكهرباء ..

إنها تقترب من مصدر الصخب ..

لكن .. لقد تأخرت كثيرًا ..

الكل على الأرض وسط الثعابين والكل قد مات .. وجوه بنفسجية محتقنة وألسنة تبرز من أفواه .. لقد ماتوا .. لدغتهم الثعابين .. لا تعرف وجوه هؤلاء الموتى لكنها تعرف فى سرها أنها وجوه أسرتها ..

تصرخ من جديد .. ترى هذا كله من أعلى وقوتها على التماسك تتلاشى .

لو سقطت لانتهيت ..

لكن .. ما هذا الذى يزحف على ذراعك باردًا لزجًا مقززًا ؟

يقولون إن الثعابين ليست لزجة .. ربما .. لكنها بالتأكيد باردة ومقززة و ...

هذا لا يليق بك

تمسكى يا فتاة بماسورة المياه ..

ماسورة مياه فى غرفة النوم .. لا مشكلة هنالك ..

تمسكى بها جيدًا .. الشىء البارد يواصل الزحف .. إنه يتسلل إلى ما تحت إبطك .. إنه بالداخل بالكامل .. يزحف عند لوح كتفك ..

لو كان ثعبانًا فقد حان وقت اللدغة ..

تمسكى ..

على الأرض يرفع ثعبان من نوع الكوبـرا رأسـه الشامخ الشرير ويفح .. تمسكى ..

لكن الماسورة تنهار .. لن تأتى السقطة منك بل من الماسورة اللعينة ..

الماء يتساقط فوق رأسك .. الماء يبلل كل شىء .. الماء ..

ثم السقطة ..

آهههههههه !

* * *

الظلام ..

صوت من يتكلمون ..

ضوء أباجورة جوار الفراش ..

الآن ترى امرأة فى منتصف العمر ورجلاً بدينًا نصف أصلع ذا شارب كث يقفان جوار فراشها .. هناك فتاة شابة تجلس جوارها فى الفراش ونصفها تحت الأغطية ، تنظر لها فى رعب ناعس ..

لا تحتاج إلى كشف عائلة كى تعرف من هؤلاء .. إنهـم أبوهـا وأمهـا وأختهـا طبعًـا .. لقد صرخت وهى تحلم بهذا الكـابوس فأيقظت الجميع ..

الأم تقول وهى تربت على كتفها :

ـ « لا تخافى يا (غادة) .. فلتتلى المعوذتين يا بنيتى .. »

والأب يقول فى توتر :

ـ « للمرة الرابعة فى أسبوع واحد .. هل هو ذات الكابوس ؟ »

هزت رأسها أن نعم .. كانت تعرف أنه ذات الكابوس .. هذا مؤكد ..

قال الأب فى شك :

ـ « إذن .. »

هنا صاحت الفتاة وهى تثب من الفراش ، كأنما لسعها ثعبان تخلف من الكابوس :

ـ « فعلاً !!! »

ورفعت الأم الغطاء لتكتشف (عبير) أن الفراش مبلل تمامًا ! إنها فى العشرين من العمر تقريبًا لكن فراشها مبلل ومن الواضح أن هذه ليست أول مرة .. ماسورة الماء التى انفجرت فى الكابوس لم تكن محض خيال ..

صرخت الفتاة وهى تبتعد كيلومترين عن الفراش ، وقد تقلص وجهها اشمئزازًا :

ـ « ألا تخجلين من نفسك ؟ كالأطفال الرضع ! »

قالت الأم فى غضب :

ـ « كأنها تعمدت ذلك يا (صفاء) .. كفى عن هذا السخف .. سوف أبدل الملاءات حالاً .. »

صرخت (صفاء) وقد وقفت متباعدة الساقين ويديها فى خصرها كأنها فى مباراة مصارعة :

ـ « لن أنام معها فى فراش واحد بعد اليوم ! »

قالت الأم فى حزم :

ـ « ليكن .. لكن تذكرى أنه لا يوجد فراش ثالث فى البيت .. سوف تنامين على الأرض إذا أصررت .. »

ـ « يا سلام ! ولماذا لا تنام هى ؟ »

ـ « لأنها المريضة .. ولأنها الأخت الكبرى ! »

كانت (عبير) فى حالة لا تسمح لها بالاعتراض أو الدفاع عن نفسها .. أنا بللت الفراش .. أنا بللت الفراش ! هذا هو كل ما تعرفه ..

فرغت الأم من تبديل الملاءات ومن إقناع الفتاة الشرسة (صفاء) بأن تنام جوار أختها .. ثم أغلقت النور وانصرفت مع الأب ..

هنا فقط أدركت (عبير) ـ من صوتها ـ أنها تبكى !

* * *

كان الأستاذ (جودة) موجه الرياضيات رجلاً حسن السمعة ، ومن المتفق عليه أن بنتيه جوهرتان تنتظران المحظوظين اللذين سيظفران بهما .. لم يكن يعطى دروسًا خصوصية لكنه ورث أملاكًا لا بأس بها فى قريته ؛ لذا كان على درجة متوسطة من الثراء .. الدرجة التى كان يطلق عليها اسم (الستر) ، وهو ما كان يستفز (عبير) فى طفولتها .. تسأله عما إذا كانوا أثرياء ، فيقول :

ـ « نحن مستورون يا (غادة) .. »

وكانت هى تجن غيظًا .. ما هو مقدار الستر وما معناه لو ترجم إلى أرقام فى المصرف ؟ هل يساوى ألف جنيه مثلاً ؟ هل يساوى مليونًا ؟

لكنهم مستورون والكل يعرف هذا ..

هو ـ كأى أب يعمل فى التربية والتعليم ـ كان يغلق بابه أمام الخطّاب إلى أن تنتهى الفتاتان من الدراسة ..

(عبير) أو (غادة) طالبة فى كلية الآداب قسم اللغة العربية .. أختها الصغرى (صفاء) طالبة فى كلية الهندسة ، ويبدو أنها ورثت ذكاء أبيها .. الأم ست بيت بالمعنى الحرفى للكلمة ، وعلى الأرجح لا تقدر على المشى خمسة أمتار فى الشارع قبل أن تضل طريقها ..

هذه هى الأسرة الهادئة التى اختارت هذه الكارثة مهبط مطارها لتنزل عجلاتها وتحط ..

كارثة بالطبع .. إن التبول الليلى لكارثة بالنسبة لطفل فى التاسعة فماذا عن فتاة شابة ناضجة فى العشرين ؟ ماذا عن زوج المستقبل الذى لن يرحب كثيرًا ـ على الأرجح ـ بزوجة تبلل الفراش كل ليلة ؟

من أين جاءت هذه الكوابيس ؟ وما سببها ؟ وكيف استطاعت أن تتجاوز كل أسوار البخور والتعاويذ التى نثرتها الأم حول ابنتها ؟

فى اليوم التالى جلس الأب مع ابنته (غادة) ـ لا تنس أنها (عبير) من فضلك ـ فى الشرفة ، وراح يتأمل بائع الفول الواقف على الناصية يقلب محتويات قدره الكبير .. راح الأب يتكلم عن الفارق بين هذا الفول وفول بائع آخر يعرفه فى (الحسين) .. هذا الرجل غشاش ولا يضع الكثير من الزيت الحار ، كما أن حبة الفول غير ناضجة .. فارق كبير بين من يدمس الفول بالطريقة البيتية المعتادة ومن يدمسه تحت الأرض فى قمائن مخصصة لذلك .. كلام فارغ لا أول له ولا آخر ، فأدركت أنه يمهد الطريق بلعبة نفسية كى تقبل ما هو آت ..

ـ « أنا لا أثق به لكنى أرى أن نجرب .. »

كان يتكلم طبعًا عن الشيخ (زينهم) الذى تحكى كل صديقات الأم عن أن (سره باتع) .. من الواضح أن كل من لا تنجب ذهبت إليه فرزقت بعشرة أطفال .. كل من لم تتزوج ذهبت إليه فتزوجت سبعة رجال .. كل من مات ذهب إليه فعاد حيًا وصار بطل الجمهورية فى ألعاب القوى ..

قالت له وهى موشكة على البكاء :

ـ « لكن أكثرهم نصابون يا أبى .. هذا لا يليق بك .. »

نظر لها نظرة طويلة ، ثم قال :

ـ « والكوابيس التى تطاردك كل ليلة .. هل هى تليق بى ؟ »

* * *

3ـ العيادة فى أول الشارع ..

لم تكن تجربة الشيخ (زينهم) تختلف عن عشرات القصص المماثلة ..

إنه يعيش فى قرية قرب بنها ، وقد استأجر الأب سيارة مخصوصة ركبتها (عبير) جوار أمها .. وكان بوسعك أن ترى جيشًا من (المصدقين) يلتف فى ساحة القرية حول دار الشيخ .. هذا ولد مجموعة من المهن الفرعية مثل بيع الشاى والسقاء والصحف والسجائر .. لقد صار الشيخ (زينهم) مركز قوة اقتصادية للبلدة ولن يتخلى عنها بسهولة أبدًا ..

قالت هامسة :

ـ « هـ هـ .. ع .. فلى .. فلى .. »

سألها الأب عما تقول فرفعت صوتها لتقول فى شىء من الاستمتاع :

ـ « إما أن هناك عملاً سفليًا مدفونًا فى المقابر لى ، وإما أننى متزوجة من جنى .. »

استعاذت الأم من الشيطان الرجيم ودعت أن يجعل الله (كلامنا خفيفًا عليهم) ، بينما قال الأب المهموم :

ـ « فلندع الله أن يكون الأمر كذلك .. على الأقل يكون هناك سبب لما يحدث لك .. »

وقفت (عبير) جوار السيارة ترمق الجماهير .. حينما دنت منها امرأة عجوز تتوكأ على عصوين وتفوح منها رائحة اللبن الرائب ، وقالت لها :

ـ « إنهما ساقاى يا شابة .. يقولون إنه الروماتيزم .. وأنت ؟ لابد أنك جئت تطلبين زوجًا .. »

ابتسمت (عبير) وهزت رأسها موافقة ، ثم غمغمت :

ـ « حرام أن أكون فى الثلاثين من دون أن أتزوج .. كلما تقدم لى شاب أصابه مرض .. »

هتفت العجوز :

ـ « عين الحسود .. وبرغم جمالك الواضح .. ما اسمك يا عروس ؟ »

قالت (عبير) فى حياء :

ـ « اسمى (شاهيناز) .. »

ربتت العجوز على كتفها وابتعدت وهى تدعو لها ..

فى النهاية استطاعت الأسرة أن تدخل .. لابد أن هذا حدث بعد ثلاث ساعات وبعد الكثير من البقشيش لحارس قدس الأقداس ..

كانت هناك قاعة فسيحة تعبق برائحة البخور .. وكان الشيخ (زينهم) شيئًا بدينًا ملتحيًا يجلس على بساط ولا يكف عن إلقاء البخور فى النار ..

رأى الأسرة المذعورة على الباب فقال بصوت عميق راجف مدوٍّ :

- « تعالى يا (شاهينااااااااااااااااااااااااااااااز) !! »

لم يفهم الأب والأم ما يحدث لكن (عبير) اقتربت من الشيخ أكثر ، وقالت وهى ترتجف :

- « يا سيدنا الشيخ .. إنهم .. إنهم .. »

قال بذات الصوت الاحتفالى المدوى وهو يلقى بالمزيد من البخور :

- « نعم .. نعم .. أعرف كل شىء .. هناك جنى واقع فى غرامك .. هو لا يريد لبشرى أن يظفر بك .. لهذا لابد من صرفه .. لابد من جعله يكرهك .. لهذا أنت فى الثلاثين من دون زواج .. »

هنا نظرت (عبير) إلى الأب فرأته يبادلها نظرات مذهولة حائرة .. قالت باسمة :

- « اسمى (شاهيناز) .. فى الثلاثين .. يهرب منى الخطاب .. هل من تعليق ؟ إن الشيخ مكشوف عنه الحجاب فعلاً .. »

قال الشيخ فى فخر ولحيته تهتز طربًا :

- « العلم كله عندنا .. فقط نحن نحقد على بعضنا ولا نؤمن بأهل العلم .. »

من دون كلمة أخرى جرَّت (عبير) أباها من يده متجهة إلى الباب ..

وفى الخارج التف حولها الملهوفون وطالبو البركة وراحوا يسألونها عما حدث بالداخل ..

كأنها خارجة من لقاء مغلق للمحادثات مع رئيس الولايات المتحدة ؛ لذا قالت بلهجة من يصرح للصحفيين :

- « الرجل بارع فعلاً .. لقد شخَّص كل شىء .. »

همس الأب فى أذنها وهم يعودون إلى السيارة وسط الزحام :

- « ما هو موضوع شاهيناز هذا ؟ »

- « الموضوع بكل بساطة أن هذا نصاب آخر .. لقد أنفقت الكثير من المال حتى اللحظة يا أبى لكننا على الأقل لن ننفق مليمًا آخر .. أعتقد أن علينا أن نجرب الطب النفسى .. »

هتفت الأم وهى تضرب صدرها بيدها :

ـ « يا ندامتى ! طب نفسى ! معنى هذا أنك مجنونة ! »

قال الأب بلهجة متعقلة :

ـ « الطب النفسى لا يعنى الجنون يا (عظيمة) .. دعك من أن الجنون أفضل من أن يعجب بها جنى .. سوف نقوم بزيارة سرية لطبيب نفسى ونرى ما يقدمه لنا .. »

وسرعان ما كانوا فى السيارة التى تشق بهم الطرق الترابية خارجين من القرية ..

* * *

الأب هو أول من لاحظ اللافتة ..

كان عائدًا إلى البيت غارقًا فى العرق ، حاملاً البطيخة كواجب كل أب مصرى نحو أسرته ، والجريدة تحت إبطه .. يبدو أنه توقف عند اللافتة قبل أن يعبر الشارع .. لابد أنه ارتجف .. لابد أن قلبه خفق للحظة .. ثم إنه صعد الدرج ببطء بسبب ثقل البطيخة ليسأل ويعرف المواعيد ..

سرعان ما كان يدخل الشقة ليضع البطيخة على المائدة التى تتوسط الصالة .. وككل أب مصرى كان من واجبه الاطمئنان أولاً :

ـ « أرجو أن تشقيها يا (عظيمة) .. أريد أن أرى إن كان البائع نصابًا أم لا .. »

من المطبخ مبتلة اليدين والثوب جاءت الزوجة .. فى يدها سكين عملاقة .. بسملت ثم غرست السكين فى البطيخة وحركتها .. انفصل النصفان أبيضين من غير سوء ..

تقلص وجه الأب اشمئزازًا وغيظًا .. لكن الوقت كان ضيقًا لا يسمح بالعودة للشجار مع البائع ..

هنا سقطت (عبير) على الأرض بلا إنذار سابق .. لقد تخلت عنها ساقاها ..

جرى الأب يسندها والأم ترش وجهها بالماء وهى تستعيذ بالله .. ماذا دهاك يا بنيتى ؟ كل يوم يجد جديد .. تمنت أن تسألها السؤال الذى كانت تخشاه .. هل هى واقعة فى حب بلا أمل ؟ من ذلك الوغد المخادع إذن ؟ الأب أيضًا تمنى لو يتأكد من هذه النقطة بالذات لكنه لم يعرف كيف يوجه السؤال ..

لكن (عبير) كانت تعرف .. تعرف أنها لا تعرف شيئًا على الإطلاق .. فقط منظر نصفى البطيخة وهما ينفصلان بدا لها مرعبًا .. لا تفهم السبب .. فوبيا البطيخ .. هل هناك شىء مماثل ؟

ثمة حقيقة واحدة .. هى أنها مجنونة أو على وشك الجنون ..

قال الأب وهو يتجه للحمام كى يتوضأ ليلحق بصلاة الظهر :

ـ « فلتلبس ثيابها بسرعة .. الطبيب فى عيادته الآن .. يجب أن نلحق به .. »

ـ « أى طبيب ؟ »

ـ « طبيب نفسى .. يبدو أنه بارع .. »

ـ « ألن تتناول الغداء ؟ »

ـ « عندما نعود سيكون هناك وقت كثير . أما الآن فعليها أن تسرع .. »

هكذا كانت (عبير) فى غرفتها ترتدى ثياب الخروج ، وبعد عشر دقائق كانت مع أبيها تحت شمس يونيو الحارقة تتأبط ذراعه وهما يمشيان نحو عيادة الطبيب فى أول الشارع ..

ماذا تقول للطبيب ؟ إنها ترى ثعابين فى نومها وإنها لا تطيق منظر البطيخ المشقوقة ؟ صحيح أنه مهيأ لسماع السخف ، لكن ليس إلى هذا الحد ..

وأخيرًا رأت أباها ينظر لأعلى فنظرت معه ..

بناية عتيقة لم ترها من قبل قط .. لافتة صغيرة بحجم صفحة هذا الكتيب عليها الاسم التالى :

سيجموند فرويد
محلل نفسى

هتفت (عبير) غير مصدقة :

ـ « لكن .. لكننى أعرف هذا الرجل .. إنه .. »

قال الأب وهو يعد ما فى جيبه :

ـ « ألمانى هو أو نمساوى .. لا أعرف بالضبط .. يقولون إنه بارع .. سوف نرى .. »

كانت هى توشك على الجنون من الانبهار ..

(فرويد) شخصيًا هنا وسوف يقوم بعلاجها .. لعبة أخرى من ألعاب فانتازيا .. لكنها لا تشعر بأى نوع من السعادة .. تشعر برهبة لا حد لها ..

وأنا لا ألومها كثيرًا على هذا ..

* * *

4- عزيزى فرويد ..

كانت العيادة عتيقة الطراز يمكن بسهولة أن تقول إنها تنتمى لأوائل القرن العشرين ..

هناك شهادات معلقة كتبت بالألمانية على الجدران التى ثبتت عليها مصابيح تعمل بالكيروسين .. هناك لوحات تأثيرية .. هناك صور تحمل طابع (السيبيا) العتيق الذى يجعل الألوان مزيجًا من البنى والأصفر الحبيبى .. فى الصور ترى طلبة دفعة ما فى العصر الذى كان الطلبة فيه عمالقة ملتحين يرتدون بذلات كاملة .. كأن سن الطالب منهم خمسون عامًا .. هناك صور لرجل ملتح يقف مع امرأة عتيقة بدورها مع طفل .. هناك ستائر باذخة وإن بدأت تتآكل من القدم .. الأثاث قديم جدًا يحمل طابع البذخ المميز للماضى .. ومن مكان ما تدوى موسيقا (باخ) ..

حتى على الباب يمكنك أن تشم رائحة الغليون القوية المحببة ..

من موضع ما ظهرت ممرضة عابسة الوجه تتكلم بكبرياء غريب ، وسألت :

- « هل لديكما موعد ؟ »

قال الأب فى ارتباك :

- « لا .. هذه أول مرة .. »

اتجهت الممرضة إلى منضدة صغيرة عتيقة الطراز وفتحت دفترًا دونت فيه شيئًا ما .. ثم قالت :

- « يمكنكما الدخول ! »

هكذا بهذه البساطة ! لم يدفعا مالاً ، ولم تأخذ أسماء ، ولم ينتظرا ثانية واحدة .. هذا مزعج .. المرء يحتاج إلى لحظات يستجمع فيها روعه ويتأهب نفسيًا قبل دخول عيادة الطبيب .. الدخول فجأة بهذه الطريقة يشعرك بأن الباب انفتح وأنت لم تفرغ من ارتداء ثيابك ..

يبدو أن هذه العيادة ليست رائجة إلى هذا الحد ..

انفتح الباب العتيق العملاق المزدان بالنقوش ، لتخرج منه سحابة من دخان الغليون ، ووجدت (عبير) نفسها تدخل إلى عالم (فرويد) ..

* * *

عندما تدخل غرفة الفحص يلفت نظرك شىء واحد : صعوبة الرؤية .. السبب هو الإضاءة الخافتة عامة ، والدخان الذى يفعم الجو .

هناك أريكة طويلة عليها أقمشة تعطيها طابعًا شرقيًا .. وهناك مقعدان بسيطان أمامها .. لكن أين هو نفسه ؟

سمعت الصوت العميق يقول بلكنة ألمانية لا شك فيها :

ـ « أرجو أن تنتظر أنت فى الخارج .. »

رفعت رأسها لترى مصدر الصوت ، فوجدت العينين الصارمتين الثاقبتين تنظران لها .. من الذى قال إن العينين لا تشعان الضوء ؟ كلما رأت عينين مماثلتين بدأت تشك فى صواب رأى (ابن الهيثم) عالم البصريات العظيم ..

كان الكلام موجهًا لأبيها طبعًا ، وحاول الأب أن يحتج فى وهن ، لكن هيبة الرجل كانت كاسحةً ، هكذا خرج من الغرفة ..

من جديد عاد الصوت العميق يقول :

ـ « أرجو أن ترقدى على الأريكة .. »

هنا أدركت أنه يجلس على مقعد بحيث يكون خلف الأريكة فلا يراه الراقد فوقها . كان يضع ساقًا على ساق ، ويمسك بغليون وقد فتح مفكرة صغيرة ..

رقدت على الأريكة ، وإن ضايقها أنها لا تستطيع أن تملأ عينها منه .. فقط اختلست نظرة فرأت ذلك الوجه المسن واللحية

البيضاء الأنيقة .. عوينات شفافة تنحدر على أرنبة الأنف يطل من فوقها كشافاه الثاقبان .. نظرة متعبة عارفة تقول بوضوح : أنت لن تدهشينى أبدًا .. لقد رأيت كل شىء من قبل ..

تنهدت ونظرت إلى السقف وهى تصغى للموسيقا القادم من فونوغراف عتيق ..

قال لها وهو يقلب المفكرة :

ـ « فرويلاين (غادة) .. ما هى المشكلة بالضبط ؟ »

يعرف اسمها من دون سؤال ! هذا الرجل جدير بسمعته فعلاً ! قالت وهى تتنهد :

ـ « كوابيس .. »

قال بصوت مليء بالاهتمام :

ـ « جميييل .. أنا أحب الأحلام وأعتبرها الطريق الملكى إلى اللاوعى .. إن اللاوعى موجود لكن هناك آلاف المفاتيح والجدران السميكة تحيط به كى لا يعرف أحد ما يدور هناك .. فقط ينكشف هذا اللاوعى فى لحظتين .. »

قالت فى ذكاء :

ـ « التنويم المغناطيسى .. »

لم تدر أنها أثارت غيظه إلى هذا الحد ، إلا عندما ارتفع صوته يصرخ بالألمانية النازية :

- « هراء ! أنا جربت هذا لفترة مع البروفسور (شاركو Charcot) فى فرنسا .. كان يؤمن أن التنويم المغناطيسى هو الحل .. ثم وجدت أن هذا غير صحيح .. اللا وعى لا يكشف عن نفسه إلا فى لحظتين .. عندما نحلم .. وعندما نتكلم بلا قيود .. هذه هى طريقة تداعى الأفكار الحر .. »

ثم قال بنفس الهدوء السابق :

- « هل من شىء آخر ؟ فكرى .. »

قالت فى خجل :

- « كوابيس تنتهى بـ .. بتبول لا إرادى .. »

- « جميل . جميل .. أحلام مبتلة .. هذا رائع .. أرجو أن تحكى لى الكابوس بالتفصيل .. »

- « فى كل مرة أرى نفسى فى .... »

* * *

.. .. ..

* * *

- « ثم تأتى السقطة وأصحو صارخة .. »

فكر حينًا ونفث سحابة دخان كثيفة ، ثم قال :

- « وبعدها تجدين الفراش مبتلاً .. »

- « نعم .. لقد صارت هذه قاعدة .. »

- « هل من شىء آخر ؟ »

- « نعم .. البطيخ .. لقد رأيت البطيخة البيضاء مشقوقة إلى نصفين .. فجأة أصابنى هلع لا يوصف وفقدت وعيى .. »

فكر قليلاً ثم غمغم فى عدم اقتناع ، وقال :

- « بطيخ .. هم م م .. فى الواقع لم يكن البطيخ من مفردات التحليل النفسى المهمة .. ربما لأنه لا يوجد الكثير من البطيخ فى (فيينا) .. أعتقد أن تحليل هذا الجزء قد يقتضى جهدًا كبيرًا ، لكنى سأجد الحل .. »

سألته فى عصبية :

- « أى إنك لن تعطى التشخيص الآن ؟ »

ضحك ضحكة قصيرة ، وقال :

- « التحليل النفسى يا صغيرتى يحتاج إلى الكثير من الوقت والصبر .. سوف أسمع الكثير من الكلام الفارغ إلى أن يسمح لى لا وعيك بتلميح ما هنا أو هناك .. »

ثم أردف :

ـ « على كل حال ، يمكن القول إننى لا أتردد فى تطبيق قوانين العصاب على نوبات الهيلة الليلية المصحوبة بهلاوس ونكوص وبعض الارتكاسات .. إذ أن زيادة الليبيدو لا تنتج عن الانطباعات العارضة وحدها ، بل تعتمد على موجات متعاقبة من العمليات التمخضية التلقائية ؛ لأن الرغبات الدافعة فى الطفولة لا يستغنى عنها فى تكوينه. ولا يتعرض خيط من خيوط الفكر السوى لمعالجة نفسية غير سوية إلا إذا حولت له رغبة لا شعورية مكبوتة من الطفولة .. إن مركب (أوديب) يمكن ترجمته من الجهة الأخرى بتسمية غير موفقة تمامًا ، وهى (مركب الكترا) لكن المبدأ واحد ، وهذا ليس مرضًا نفسيًا قدر ما هو حالة من حالات النفس .. »

فرغ من الكلام ، فسألته :

ـ « هل تتكلم العربيةَ ؟ »

ـ « ما قلته كان بالألمانية .. »

ـ « ألمانية أو عربية . المهم أننى لا أفهم حرفًا .. لم أسمع سوى كلمة (افتكاسات) .. »

ـ « (ارتكاسات) .. على كل حال رأيك لا يهم .. المهم أننى أفهم يا صغيرة .. إن التحليل النفسى عملية معقدة وليس لعبة هواة يمارسها المدعون أمثال أدلر ويانج .. تصورى أن هذا الأخير كان تلميذًا لى ثم انشق عنى وخالفنى .. يا له من أحمق ! »

ويبدو أن عرقه الألمانى قد تيقظ لأنه راح يرغى ويزبد ويقذف الشتائم بالألمانية ، حتى حسبت نفسها فى فيلم عن الحرب العالمية

الثانية .. ربما تدوى الطلقات النارية فى أى وقت .. أختونج .. ماين كامف .. ماين فيورر .. فيج ميت شتالين .. دويتشلاند أوبر اليس .. طاخ طاخ بوم !

طمأنت نفسها أنه يهودى فلن يكون نازيًا أبدًا .. لقد بدأ يهدأ أخيرًا ثم نظر لساعته وأعلن أن وقت الجلسة قد انتهى .

فى الخارج كان أبوها ينتظرها فى قلق ، وسألها وهو ينظر ليدها :

ـ « أين الروشتة ؟ هل نسيتها بالداخل ؟ »

يتوقع أن يجد روشتة زرقاء بها نوعان من الأقراص ونوع من الكبسولات ، يصرفها من عند الدكتور (إسكندر) وينتهى الأمر .. ليست الحياة بهذه البساطة ..

قالت له فى انتصار :

ـ « لا توجد روشتة .. فقط المزيد من تداعى الأفكار الحر الذى قد يجد حلاً للعصاب الهستيرى المقترن بالهيلة الليلية ذات الهلاوس .. »

ـ « هل تمزحين ؟ »

ـ « ربما .. لكن هذا ما قاله الدكتور .. »

هنا قالت الممرضة وهى تدون شيئًا فى دفترها :

ـ « موعدنا الثلاثاء القادم .. السادسة مساء .. »

* * *

5- عزيزى فرويد مرة أخرى ..

فى انتظار دخولهما إلى فرويد ، تبادل الأب ثرثرة طويلة مع الممرضة عن هذا الرجل .. كان ككل المرضى يريد أن يعرف ذلك الذى يعالج ابنته ، وقد دس فى يدها خمسة جنيهات لتفك عقدة لسانها .. كل الممرضين صموتون متشككون قليلو الكلام إلى أن تلمس أناملهم قطعة العملة .. فحكت له الممرضة :

- « د. فرويد Freud قد ولد عام 1856 فى (مورافيا) .. إنها تتأرجح بين النمسا وتشيكوسلوفاكيا .. كان أبوه تاجر صوف يهوديًا وثق فى ذكاء ابنه وأعطاه خير فرص ممكنة للدراسة .. ثم كبر الصبى فانتقل للدراسة فى فيينا .. أخرج عام 1881 ليصير طبيب أمراض عصبية ونفسية ، وله أبحاث مهمة فى مرض الشلل المخى cerebral palsy .. ثم ارتحل إلى فرنسا ليدرس على يدى أستاذ الأمراض العصبية الأشهر (شاركو Charcot) ، بعد هذا اهتم بالأمراض النفسية حيث فكر فى استخدام التنويم المغناطيسى فى العلاج .. وتتلمذ كثيرًا على أستاذ يدعى Bruer .. هنا بدأ فرويد يكون نظريته الخاصة عن اللا وعى وقدرة التحليل النفسى على إخراجه إلى السطح ، وكان رأيه أن معظم الأمراض النفسية ناجمة عن تجارب سيئة فى الطفولة .. »

نظرت (عبير) إلى أبيها ، وهمست :

- « مثقفة جدًا هذه الممرضة .. أشعر أنها زميلة فرويد فى محفل علمى .. »

قالت الممرضة التى سمعت التعليق بطبيعة الحال :

- « لا تنسى أن هذه فانتازيا يا عزيزتى .. لابد أن تعرفى خلفية ما يحدث هنا .. »

نظر الأب نظرة حادة إلى عبير لتخرس ، ثم طلب من الممرضة أن تكمل الكلام ، فقالت :

- « قبل فرويد كانت الفكرة المسيطرة على الطب النفسى هى أن المرء يسيطر بالكامل على ذاته ويعرف كل دهاليزها .. فرويد أدخل مفهوم اللاوعى .. كل شىء يحدث فى أعماق وعينا .. نحن لا نعى أكثره ولا نتحكم فيه .. هناك طبقات فوق طبقات تمنعنا من معرفة ما يدور هنالك .. على كل حال أغلب وأهم آراء فرويد موجود فى كتابه (تفسير الأحلام) الذى كتبه عام 1899 .. »

احمر وجه الأب كعرف الديك ، وقال فى حزم أبوى :

- « هذا كتاب بذىء .. كتاب فاضح ! لقد قرأته ! »

ـ « قرأت ما أخذه منه مؤلفون لا يهمهم إلا البيع .. إن الجنس عنصر مهم من عالم فرويد ، لكن هناك الكثير من العلم كذلك .. ما يحدث هو أن أى مترجم يأخذ الجنس والإثارة فقط ويحشو به كتابًا رخيصًا يباع على الأرصفة ، ويطلق على الكتاب (تفسير أحلام فرويد) .. هذا أساء لسمعة فرويد بحق .. بالنسبة لكثيرين هو مجرد كاتب جنسى رخيص بذىء .. »

تذكرت (عبير) تعبيرًا سمعته فى مكان ما : لقد صنع فرويد قنابل عالية التفجير ليحفر بها أنفاقًا فى الذات البشرية ، فأخذها الناس وصنعوا منها (بمب) وألعابًا نارية يتسلون بها ..

قال الأب فى حماس :

ـ « ثم إنه يهودى ! »

قالت الممرضة :

ـ « فى هذا أنت محق .. معظم الأطباء النفسيين الرواد كانوا يهودًا ؛ لهذا تشكك النازيون فى علم النفس واعتبروه (علمًا يهوديًا) .. ولهذا أحرقوا اغلب كتب فرويد ، ولو بقى فى النمسا لأحرقوه بدوره ، لكنه فر إلى لندن قبل الحرب العالمية الثانية .. إلا أن فرويد لم يكن يهوديًا متدينًا ، دعك من أن أكثر معارضيه ومن اتهموه بأنه مغفل يهود بدورهم .. وعلى كل حال معظم علماء الفيزياء النووية يهود كذلك ، فهل ترفض علم الفيزياء النووية برمته ؟ »

هز الأب رأسه وبدا أنه غير مقتنع لكنه آثر الصمت ..

عادت الممرضة تواصل السيرة الذاتية لفرويد :

ـ « فى اللا وعى تكمن كل خواطرنا وذكرياتنا الأليمة أو المشينة .. نعتقد أننا نسينا لكن لا شىء يُنسى فى العقل الباطن .. لقد بحث الدكتور كثيرًا فى الأساطير الشعبية .. وبحث فى نشأة الأديان ومفهوم التابوو والطوطم .. كل هذا كى يفهم .. وكان رأيه أن عقدة أوديب (Oedipus complex) تسيطر على وجداننا منذ الطفولة .. الطفل يحب أمه ومرتبط بها ، بينما يعتبر الأب دخيلاً وعدواً .. هذا النشاط يصل لذروته عند سن خمسة أعوام ثم يهبط .. دعك من حسد الطفلة لأخيها لأنه يملك صفات الذكورة ، بينما يخشى الطفل أن يفقد هذه الصفات فى ظروف غامضة بما أن أخته فقدتها و ... »

ـ « المريضة !! »

جاء الصوت من داخل غرفة الكشف فقاطع هذه المحاضرة العلمية .. قالت الممرضة فى لهفة :

ـ « هيا .. ولكن أرجوك لا تقولى إننى كلمتك عن أى شىء .. »

* * *

فى الداخل كان دخان الغليون والظلام ينتظرانها كالعادة ..

وتساءلت (عبير) عن مصدر دخل هذا الرجل ما دام لا يبدو أنه يتعامل مع أى مريض سواها .. لهذا ليس التحليل النفسى رائجًا .. الطبيب يقضى مع المريض ساعات طويلة كان يمكنه خلالها أن يرى عشرات المرضى لو لجأ للطريقة العادية بدلاً من التحليل النفسى .. لو تعاملنا بمبدأ الجدوى الاقتصادية فهذا مشروع فاشل .. لكن فرويد لم يكن يبحث عن المال .. لو أردنا الدقة لقلنا إنه لم يبحث عن علاج المرضى كذلك ، قدر ما كان يبحث عن المعرفة التى لا تقدر بمال ..

طلب منها أن تتمدد على الأريكة كالعادة وجلس فى الظلام يدخن .. الحقيقة أنها بدأت تعتاده وتعلمت كيف تسترخى .. فى البداية تجد صعوبة شديدة فى أن تنام مسترخية أمام شخص غريب ، دعك من أن يكون هذا الرجل فرويد نفسه ، لكنها تعلمت مع الوقت كيف يسترخى جسدها وتسترخى روحها .. إنها تتكلم كأنها تكلم نفسها فى المطبخ ..

سألها بصوته العميق :

ـ « هل من مزيد من الكوابيس ؟ »

ـ « الكثير منها .. لقد صارت عادة .. »

ـ « سأكون شاكرًا لك لو أعدت سرد الكابوس من جديد .. إن اختلاف الكلمات يساعدنى .. دعك من تركيزك على نقاط بعينها .. هذا مهم .. »

تنهدت فى ملل .. يبدو أنها حكت هذا الكابوس خمسين مرة حتى الآن ..

سألته :

ـ « هل من نزيف .. أقصد هل من بصيص ضوء ؟ »

هنا سمعت صوته المتنبه الذى يشعرها بأن عينيه تضيئان فى الظلام ، يقول :

ـ « لماذا قلت (نزيف) ؟ »

قالت فى ارتباك :

ـ « عثرة لسان لا أكثر .. هذه الأمور تحدث .. »

ـ « أنا لا أعتقد أن عثرات اللسان صدفة .. هذه من اللحظات التى يعبر فيها العقل الباطن عن نفسه برغم الرقابة العاتية .. »

ثم أطلق سحابة دخان كثيفة ، وقال :

ـ « أنت تعرفين أن الحلم يلجأ إلى الترميز مثله مثل الشعر .. حلمك يعج بالثعابين ، وهى رمز رجولى قوى .. هناك رائحة سمك .. السمك والعين رمزان أنثويان قويان جدًا .. تذكرت أباك فجأة

وطلبت عونه .. هنا يبدو مركب أليكترا بشكل واضح .. إن أبـاك قـادر على إنقـاذك لكنـه (هنـاك فى الجـانب الآخر من البيت) .. مع أمك .. المنافس .. لكنك تحدثت عن خالك الـذى يكره أغـانى أم كلثوم .. هذا لغز واضح .. ما الـذى أقحمه فى هذا التداعى الحر للأفكار ؟ »

ـ « ربما لأن خالى يكره أغانى أم كلثوم فعلاً .. »

ـ « وما الذى جاء بسيرة أم كلثوم هنا ؟ ومـا دور البطيخـة ؟ هذا هو ما أتوقع أن أعرفه وأستخرجه من عقلـك البـاطن .. لقد وجد الليبيدو الخاص بك متنفسًا فى التبول غير الإرادى ، الذى يقحم نفسه فى صورة واحد من أحلام جرس المنبه ، حيث يتم تلفيق حلم كامل وبأثر رجعى من أجل لحظة نهايتـه .. البلل فى نهاية الحلم هو مبرر وجود مواسير الماء فى بدايته .. »

قالت فى غيظ :

ـ « لو كنت تعتقد أننى أغار من أمى لأننـى معجبة بـأبى ، وربمـا أحب خالى كذلك لأنه يشترى لنا البطيخ ، فأنت مخبول تمامًا .. »

ـ « هكذا يقولون دومًـا .. أنـت لـن تسـتطيعى أن توجهـى لـى إهانات أكثر مما وجهه لى زملائى عندما أذعت نظرياتى .. قـالوا إننى أفسدت كل شىء فى الحيـاة .. شوهت علاقـة الأم وابنـهـا ، وشوهت حبنا لأقاربنا ، وشـوهت حزننـا علـى مـن مـات .. حتـى الضحك على النكات وحب الوطن شوهته .. صدقينى لقد سمعت

ما هو أسوأ .. هناك أطباء ألمان محترمون بصقوا على الأرض عندما مررت بهم .. »

ـ « وكانوا على حق .. »

ـ « ربما .. لكن هذا ليس موضوعنا .. و ... معذرة .. »

وفجأة نهض واتجه إلى ركن القاعـة .. نهضت مستندة على كوعها لترى ما يفعله فوجدته قد أوقد مصباحًا وفتح فمـه وراح يتفحصـه فى مـرآة صـغيرة على الجدار .. ما معنى هـذا ؟ كـانت كالعامة تعتقد أن الأطباء النفسيين ليسوا على ما يرام غالبًا ؛ لـذا بدت لهـا هـذه اللمسة تبشر بالكثير من الخير .. لن تتأخر كثيرًا لحظة وضع الكسرولة على الرأس ..

لكنه تفحص فمه قليلاً ودس إصبعه فيه ، ثم عاد ليجلس ، وقال :

ـ « سرطان الفم من جديد ! لقـد عـاد .. شعرت بهـذا التـورم وأنا أكلمك الآن .. برغم كل الجراحات التى أجريتها .. لقد سببه لى تدخين السيجار المفرط .. ولهذا اتجهت إلى الغليون .. »

ـ « هذا مؤسف .. لكن الغليون ليس أكثر أمنًا .. »

ـ « لابد لى من أن أدخن شيئًا ما وإلا جننت .. تصورى إن سقف فمى من النحـاس وليس من العظـم ؟ لكن هذا ليس كافيًا .. لقد تحملت هذا المرض كثيرًا حتى عام 1939 عندما طلبت من طبيبى

المعالج أن يريحنى من عذاب لا ينتهى .. هكذا قام بحقنى بجرعة مضاعفة من المورفين وانتهى الأمر .. على كل حال .. ما علينا .. »

كانت هذه فانتازيا حيث يمكن أن يتكلم المرء عن ظروف وفاته وما تلاها .. هذا شىء معتاد وطبيعى جدًا هنا ..

أطفأ المصباح وعاد لها ثم فتح المفكرة ، وقال :

ـ « تكلمى عن أى شىء يروق لك .. »

* * *

فى ذلك اليوم كنت ألعب مع (سحر) و(هدى) فى الشارع .. كنت فى الحادية عشرة من عمرى .. الحر الشديد .. بابا يعود من العمل حاملاً بطيخة .. يطلب منى ألا أتأخر ثم يدخل مدخل البناية .. العرق يبلل صلعته ووجهه وإبطيه ..

الحر الشديد .. إنه يونيو .. بداية الصيف .. الشعور بأن الإجازة بدأت لتوها وأنت لا تعرف ما تفعله بنفسك .. (سحر) لطيفة وشقية .. (هدى) حازمة قليلة الضحك تبدو مثل أمى .. فستانى أبيض مريح يوحى بانتعاش الصيف .. قصير الكمين .. صندل .. لكن الصندل زلق بفعل العرق ، لهذا أفضل اللعب حافية ..

نتقاذف الكرة .. البواب يصغى للراديو .. يطلب منا ألا نبتعد .. هناك قط مشمشى اللون يرمقنا فى كسل من تحت سيارة .. سيارة فيات بيضاء .. يغمز بعينه ثم يتوارى فى الظل ..

بائع آيس كريم يمر منهكًا وقد لوح الحر بشرته .. الرسوم الساذج على السيارة لها طابع فرعونى لكنه متخشب ، ومن الغريب أن المصرى بحسه الشعبى يرسم كما رسم الفرعونى القديم .. المقطع جانبى للوجه لكن العين فى مسقط أمامى تبدو كالسمكة بالضبط ..

يبدو الآيس كريم مغريًا لكن أبى لن يسمح لى بشرائه ، لأنه ملوث بالتيفود .. حسب كلام أبى ، هذا الرجل يقوم بشراء بكتريا التيفود من المعامل ويضيف لها السكر واللبن ثم يجمدها ويبيعها ..

ربما لو طلبت من خالى شراء بعضه لى .. لكن لا .. خالى يكرهنى بشدة ولن ينفذ لى هذا الطلب ..

الكرة تبتعد .. تصطدم بالجدار .. أركض لأحضرها .. لكن .. ماذا حدث لى ؟؟ لقد جرحت .. لقد جرحت ! عينى تنزف دمًا لا أدرى كيف ولا متى .. لا أكلم صديقتى الصغيرتين ..

أجرى إلى البيت ..

البطيخة على المائدة .. أهرع إلى غرفة النوم ، وأتوارى وأبكى .. لا أريد أن يرانى أحد .. لا أريد أن تعرف أمى .. إننى أبكى .. الدم يتساقط والرعب يفعمنى ..

هل أنا أموت ؟ هل سأكون عمياء بقية حياتى ؟

إننى .. ..

لا !!!!!!!!!

* * *

عبير وعبير وعبير

(مسرحية من فصل واحد)

(إضاءة المسرح خافتة جدًا ، والديكور بسيط أقرب إلى التجريدية .. لا بأس من جدران هنا وهناك مع بعض الرموز الفرويدية المعلقة .. ربما يفضل مهندس الديكور وضع طوطم صغير فى خلفية المسرح ليذكرنا بكتاب فرويد الشهير (الطوطم والتابو) .. هناك أريكة أيضًا .. لا يمكن الكلام عن فرويد من دون أريكة .. هناك موسيقا مخيفة كأنها من الأدغال تذكرنا بظلمات النفس .. المفترض أن هذا هو عقل عبير ، لهذا يمكن لمهندس الديكور أن يجعل شكل المسرح الكلى أقرب إلى تعاريج المخ) ..

الشخصيات :

عبير (هى ID) : فتاة مائعة تلبس ثيابًا خليعة ولها ضحكة مدوية تثير القشعريرة

عبير (أنا Ego) : فتاة عاقلة تلبس ثيابًا محترمة .. أقرب إلى الاتزان ..

عبير (أنا عليا Super Ego) : فتاة حكيمة وقور تتحدث بشكل أسطورى لا يمت للواقع بصلة .. ثيابها كثياب المنقبات أو الراهبات ولها نظرات حالمة تتطلع إلى أعلى طيلة الوقت ..

تدخل (عبير هى) متمايلة مترنحة ممسكة بكأس .. تضحك فى ميوعة ثم تجلس على الأرض مواجهة لجمهور المسرح)

عبير هى : حر .. حر شديد .. لماذا لا يحق لنا أن نمشى من دون ثياب ؟ لهذا يشعر الرضع بالسعادة .. لأنهم غير مقيدين بالثياب ..

تدخل (عبير أنا عليا) ممسكة بكتاب وهى منهمكة فى القراءة .. تنظر فى احتقار إلى (عبير هى) وتهز رأسها ..

عبير أنا عليا : الحيوانات كذلك سعيدة لأنها عارية .. لكن لابد من شىء يميز بيننا وبينها .. كل هذه القرون من التحضر لابد أن يكون لها معنى ما .. لو كان جل حلمنا هو التشبه بالرضع أو الحيوانات فعلى البشرية السلام ..

عبير هى : الهدف الوحيد للحياة هو اللذة .. كم أتمنى أن تصيرى على طبيعتك وتكفى عن ارتداء عباءة الفلاسفة ومسوح الرهبان .. أنت منافية للطبيعة ..

عبير أنا عليا : وأنت عبارة عن طفل .. طفل لم يتعلم التهذيب ..

عبير هى : ومن قال العكس ؟ *(تضحك فى مجون)* .. فرويد وصفنى فقال إننى عبارة عن طفل ولد لتوه ولم يتعلم أى شىء .. إننى شهوات بلا رقيب .. شهوة الطعام وشهوة الجنس .. الأنانية المطلقة .. انتصار الحيوانية .. السيطرة لمراكز

العقل السفلى .. بالمناسبة *(تنظر إلى الجمهور)*
هناك شاب وسيم فى الصف الثالث ! أشعر بأننى
وقعت فى الحب ! هل هناك شىء فى العالم كله
أروع من رجل جميل ؟

عبير أنا عليا : نعم .. عقل جميل .. أخلاق جميلة ..

عبيـــر هى : أنت لست امـرأة .. أشعر بأنك مزيج من فيلسوف
ورجل دين ومفكـر ومصلـح اجتمـاعى .. ضمـير
يمشى على قدمين ..

عبير أنا عليا : أنا كذلك فعلاً .. فرويد قال إننـى أمثـل أسـمى
ما وصل له الضمير البشرى .. لقد تكونت عندما
تعلمتْ (عبير) الكبيرة أن تقـرأ قصـص الأبطـال
والشعر وتسمع المواعظ الدينية .. إننـى السـمو
نفسه .. ومهمتى أن أراقبك وأوبخك .. ليس هذا
فحسب .. إننى أراقب أحلامك أيضًا وأمنعها من أن
تكون صريحة .. كل ما هو محرم فى الحلم أقوم
بتحويله إلى رمز ..

عبيـــر هى : ربما تتحسن مشاكلك النفسية لو تناولت جرعة من
هذا الشراب ..

عبير أنا عليا : أنا لا أشرب هذا (الهباب) .. لقد توضأت استعدادًا
للصلاة ..

عبيـــر هى : صلاة ؟ *(تضحك)* .. يبدو أننـا لـن نتفق أبـدًا ..
اسمعى .. هنـاك صديقـة لـى قد تركت معى ألفـى
جنيـه .. سوف تـأتى لتطلبهـا غدًا .. هل تعرفيـن
ما سيحدث ؟ سأنفى أننى أخذت منها أى شىء ..

عبير أنا عليا : إذا اؤتمن خان .. هذه من آيات المنافق الثلاث ..

عبيـــر هى : ربمـا كنت منافقـة ، لكنـى كذلـك أحقق الهـدف من
وجودى . الحصول على كل شىء بـلا ثمـن .. هـذا
هو الهدف الأسمى لى .. على كل حال لا يشكل المال
بالنسبة لى كل شىء .. هناك الليبيدو Libido .. الطاقـة
الشهوانية المحركـة للوجـود .. هـذا مـن تعبـيرات
فرويد .. أنا غريزة الحياة . الإيروس Eros .

عبير أنا عليا : لا تنسى أن هناك غريزة فناء ذاتـى أو مـوت لـدى كل
البشر .. الثاناتوس .. كل الناس تريد أن تموت وتسكن ..

عبيـــر هى : دعك من هذا .. الحقيقة أننى لم أعد أطيقك !

عبير أنا عليا : هلمى أيتها المستهترة .. جربى أن تذوقى قبضتى ..

*تـدور الفتاتـان حـول بعضهمـا ثـم تلتحمـان فـى صـراع شـرس
شبيه بشـجار القطـط .. فقط ينتهى هـذا لـدى الدخـول المتعجل
لـ (عبير أنا) ..*

عبيــــرأنـا :يا ساتر ! لا أستطيع أن أترككما فى سلام أبدًا !

عبيــرهى : هذه الفتاة تعتبر نفسها الشهيدة والقديسة والمعلمة .. بصراحة لم أعد أطيقها ..

عبيرأناعليا :أما هذه المستهترة فمجموعة شهوات تمشى على قدمين ..

عبيــــرأنـا :ومن قال العكس ؟ كل واحدة فيكما تفعل بالضبط ما هو مفترض منها .. لكن هناك مشكلة خطيرة .. صراعكما يعذب (عبير) الكبيرة فعلاً .. إنها الآن تعانى الصداع والتوتر النفسى والاكتئاب والشعور بالذنب .. أنتما تعرفان التوازن الدقيق الذى نمثله .. (عبير هى) تمثل الدوافع الجنسية ، بينما أنا أمثل غريزة حفظ الذات .. أنا الوسيط بين رغبات (عبير هى) الجامحة المخبولة وواجبات العالم الخارجى .. عندما تكون الغلبة لـ (عبير هى) يبدأ عصاب التحويل من طراز الهستيريا والوسواس .. عندما تكون الغلبة لى يبدأ العصاب النرجسى .. (عبير هى) طفل يريد كل شىء لنفسه .. مثلا هى تتمنى لو سرقت المصرف ..

عبيــرهى : فكرة رائعة لم تخطر لى ببال ! يجب أن أجرب هذا غدًا ! لن يتصور أحد أن فتاة رقيقة تحمل معها سكينًا وتهدد الصراف ..

عبيــــرأنـا :فكرة غبية .. المجتمع لن يسمح بذلك .. سوف يحملونك إلى قسم الشرطة حيث يصفعك مخبران على قفاك الجميل ..

عبيــرهى :إذن لا داعى للسرقة .. سأنزع ثيابى أمام الكاميرا وأضع صورى هذه على الإنترنت .. كم هى فكرة مثيرة أن يرانى الشباب جميعًا فى هذه الصورة ..

عبيــــرأنـا :هذا هو الجنون بعينه .. سوف تتلقين الصفعات على قفاك من مخبر فى شرطة الآداب هذه المرة ..

عبيرأناعليا :ولماذا تهددينها بالشرطة ؟ لماذا لا تمتنع عن الفعل لأنه عيب وحرام ؟

عبيــــرأنـا :هى لن تفهم هذه الأمور .. كل ما يهمها الحفاظ على كيانها .. أى إنها سوف تمتنع عن كل ما يدمرها أو يقتلها .. أما الكلام عن المثل العليا فشىء لا تفهمه ..

عبيــرهى :فعلا أنا لا أفهم دورك .. هل كل ما تفعلينه هو إصلاح المشاجرات بينى وهذه القديسة ؟

عبيــــرأنـا :فعلاً .. هذا هو دورى .. أنا الحكم بينكما .. كما أننى أحرك ميكانيزمات الدفاع للتوفيق بينكما .. يجب أن نقبل طبيعتنا .. يجب أن تفهم (عبير أنا عليا) أن (عبير هى) لا تستطيع إلا أن تكون شهوانية شرهة

أنانية .. يجب علـى (عبير هـى) أن تعـرف أن (عبير أنا عليا) لا تستطيع إلا أن تكون ضميرًا .. هكذا تهدأ الأمور .. (*تنظر لهما وتبتسم*) .. هيـه .. صاف يا لبن ؟

عبيــرهى :حليب يا قشطة ! (*ترقص فى مرح*) ..

عبير أنا عليا :سأحاول أن أتسامح مع تلك المستهترة .. سوف أفترض أنها مجرد طفل كما تقولين .. لا أعرف كيف سأتحملها لكن سأحاول ..

عبيــرهى :إذن نرقص رقصة ساخنة معًا !

عبيــرأنا :بل تسترين جسدك وتتوضئين ونصلى صلاة شكر لله ..

يخرجن من المسرح متعانقات .

ستار

* * *

6ـ لم أعد أتحمل ..

كانت تبكى .. فجأة هى تتذكر تفاصيل كل شىء .. تتذكر رعبها وتبكى .. تصرخ فى فرويد وتلومه وتطلب منه الأشياء التى كانت تطلبها وهى طفلة مذعورة :

ـ « ألا ترى الدم يا أحمق ؟ ساعدنى ! لا تناد أمى ! »

سمعت فرويد يقول فى الظلام :

ـ « هذا هو مبدأ التحويل Transference .. جميل .. جميل .. أنت تكررين فى الحاضر ما كنت تفعلين فى الماضى مع شخص لا علاقة له بطفولتك .. غالبًا ما نحول عاطفتنا نحو والدينا أو ما يسمونه بالـ dyad باتجاه أزواجنا .. كثيرًا ما يتم التحويل نحو المحلل النفسى وهذا مفيد .. هناك مثلاً الرجل الذى عذبته أمه فى طفولته ، من ثم كبر ليكره كل النساء ويعذبهن .. السبب أنه قام بالتحويل .. والآن أريد منك أن تهدئى .. »

هدأت نوعًا لكنها ظلت ترتجف وتبكى فى صوت خفيض ..

لا تذكر سوى عينيه تشعان فى ظلام الغرفة وهو يقول بلهجته الألمانية :

ـ « هناك بطيخة يحملها أبوك .. هناك فستان أبيض وسيارة فيات بيضاء .. تذكرى البطيخة بيضاء القلب التى سقطت مغشيًا عليك لدى رؤيتها .. هناك قدمان حافيتان .. مفردات الحلم تتكرر .. لاحظى أن القدم الحافية رمز ذكرى قوى .. البواب يصغى للراديو .. هل تسمعين الأغنية فى الراديو ؟ هل تميزينها ؟ »

إنها بالفعل تسمعها بوضوح .. « أغدًا ألقاك ؟ يا خوف فؤادى من غدى .. »

ـ « إنها أم كلثوم .. تكلمى .. هى ذات الأغنية التى تسمعينها فى الحلم .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. ولكن .. »

لكنه كان مصرًا بلا رحمة .. يواصل الكلام :

ـ « هناك أكثر من عين .. الرمز الأنثوى الأقوى .. قط يغمز بعينه .. عين فرعونية على عربة الآيس كريم .. عينك تنزف .. العين لا تنزف فجأة هكذا .. تهربين من صديقاتك .. تتوارين فى البيت خجلاً .. لا يجب أن تراك أمك .. لماذا لا يجب أن تراك أمك ؟ لماذا ؟ »

تقول وهى تغطى فمها :

ـ « لا أعرف .. لا أعرف ! »

ـ « هناك كذلك عثرة اللسان عندما قلت (هل من نزيف ضوء) .. ما حدث لك وقتها هو تغير فسيولوجى طبيعى يمر بالفتيات لدى البلوغ .. حدث فجأة وأنت تلعبين مع صاحباتك ، ورأيت قطرات الدم . أصابك ذعر لا يصدق لأنك حسبت أنك تموتين أو أن هناك خطأ ما .. الموقف هكذا دائمًا .. لكن الرعب أدى لميكانزم دفاعى فى عقلك الباطن .. الذكرى التى بقيت لك من هذا الموقف هو أن عينك كانت تنزف .. »

صاحت فى رعب :

ـ « لا .. لا يا أبى .. أنا لم أفعل شيئًا ! »

قال فى رضا :

ـ « المزيد من التحويل .. وأنا أبوك وأقول لك إنك ابنتى وإننى أثق بك .. »

ـ « لم أفعل شيئًا ! »

ـ « وأنا أصدقك ! إن أى اضطراب نفسى هو فى الحقيقة اضطراب للوظيفة الجنسية للفرد .. لو قرأت كتابى (ثلاث نظريات فى الجنس) لفهمت ما أقول .. »

الحقيقة أن هذا صحيح .. لدرجة أنه فسر نشوء الدين كله بعقدة (أوديب) لدى الإنسان الأول .. وفى كتاب (موسى والتوحيد) حاول أن يجمع بين الهجوم على الدين اليهودى والدفاع عنه ..

انفجرت (عبير) فى البكاء من جديد ، فقال الطبيب اليهودى صارم العينين :

ـ « إن المادة التى يتم استرجاعها بالتحليل النفسى كريهة مقيتة لدى المريض ؛ لذا يكون انفعاله مثل انفعالك الحالى : البكاء .. هذا يفسر الكثير عن ذلك الكابوس الذى ترينه .. إنه ببساطة هذا الموقف وإن تنكر فى لغة الحلم الرمزية .. إن الحلم هو حارس النوم ، ومهمته أن يطلق التوترات التى فى أعماقك ويريحها .. لكن حتى فى لحظات كتلك تظل الأنا العليا تراقب فى صرامة .. هكذا يضطر الحلم إلى استخدام لغة الترميز ليفلت من هذا الرقيب الصارم المتدين .. على كل حال قد بدأ الأمر يتضح .. البطيخة صار لها معنى ما .. ربما كنت مخطئًا وكانت مجرد (فوبيا phobia) .. الفوبيا هى المخاوف التى لا تخضع للمنطق ولا يتناسب حجم الاستجابة لها مع موضوع الخوف .. التفسير الحالى يقول إن البطيخة ارتبطت بخبرة مروعة فى الطفولة ، هكذا ظلت رؤيتها تستعيد هذه الخبرة ، والتفسير الثانى يقوم على إحلال خوفك من

رغباتك المحرمة مكان البطيخة .. هكذا تخافين من البطيخ بدلاً من خوفك من رغباتك المحرمة .. هذا تفاعل شهير فى تكوين الفوبيا .. أحيانًا نخاف الأماكن المرتفعة أو الظلام لأننا نخاف فى الحقيقة أن نعترف بكراهية الأب .. فى حالتك تخافين الاعتراف بنواح مؤلمة جدًا من نفسك لهذا تفضلين أن تخافى البطيخ .. »

وحك لحيته فى رضا وقد بدا كأنه (شيرلوك هولمز) فى نهاية رواية من رواياته عندما يفسر كل شىء ، وأردف :

ـ « ولكن هناك مقطعًا لم أفهمه من كلامك .. قلت إن خالك لا يحب أم كلثوم .. ثم قلت الآن : خالى يكرهنى بشدة ولن ينفذ لى هذا الطلب .. لماذا ؟ »

ـ « لا أعرف .. »

نفث سحابة كثيفة من الدخان ، وقال :

ـ « لأنك متعلقة بخالك بشدة .. ربما أكثر من اللازم .. الأنا العليا لا تسمح لهذا التعلق بأن يتجاوز مداه ؛ لذا يظهر ميكانيزم دفاع آخر اسمه (الإسقاط projection) .. إما أن تعتقدى إن صديقتك تحب خالك بشدة ، وإما أن تعتقدى أن خالك يكرهك بشدة .. »

ـ « لا أفهم حرفًا .. »

- « لكنى أفهم وهذا هـو المهم .. (غـادة) .. هنـاك مستنقع فى أعماق نفسك وقد بدأنا نكشف الغطاء عنه .. »

ثم فرك يديه فى مرح ، وقال :

- « هنـاك الطفلة جـوار البئـر .. هـذا جـزء لابد من فهمـه بوضوح .. هذا موضوع جلستنا التالية .. والآن .. »

قبل أن يفهم ما يحدث كانت قد وثبت من على الأريكة وجرت خارجة إلى أبيها ..

ارتمت بين ذراعيه باكية وهو يبسمل غير فاهم ما دهاها ..

قالت له وهى تمسح أنفها فى بذلته :

- « هذا الرجل مجنون .. إنه .. إنه مريض .. كل شـىء فـى عالمه هو الجنس .. تفسير كل شىء .. يتخيل أننا مجموعة مـن الوحوش نـدارى حقيقتنـا حتـى عن أنفسنا .. إنـه يجعل الحيـاة جحيمًا .. »

لم يفهم الأب .. فقط استخلص من كلامها أن (فرويد) عجوز وقح قليل الأدب ، وخلع حذاءه مصرًا على الدخول ليؤدبه ، لكنها استوقفته :

- « لا .. إنه مهذب جدًا .. لكن عقله مريض ومنطقه معوج ... »

ثم قالت فى تصميم :

- « أبى .. لن أعود هنا مرة أخرى .. لنجرب طبيبًا آخر .. »

* * *

هى فى حقل .. تعرفه جيدًا .. إنها طفلة فى الثالثة أو الرابعة .. تركض فى الحقل .. تطارد اليعاسيب التى لم تكـن تعرف أنهـا كذلك ..

هناك من يصرخ .. صرخات رفيعة جدًا من خلفها ..

تنظر إلى الخلف للحظة ثم تواصل الركض ومطاردة اليعاسيب ..

فجأة توقفت الصرخات ..

* * *

هو التوفيق الإلهى الذى جعل الأب يمشى فى الشارع المجاور عصر ذلك اليـوم القـائظ .. كـان يشتهى البطيخ ، لكن النكوص والارتكاس لدى (غادة) مع كل مركبات (ألكترا) وتثبيت الليبدو والتحويـل والإسقاط والتسامى ، كل هذا جعلـه يخـاف البطيخ كالموت ذاته ..

قال لنفسـه :

ـ « صيف من غير بطيخ تضحية هينة مقابل أن تحتفظ ابنتى بعقلها .. »

المهم ألا تكون مصابة بفوبيا ما تتعلق بالخوخ والمانجو .. هذا يجعل الحياة قاسية فعلاً ..

هنا وجد أنه يقف عند مدخل عمارة يهب منه هواء رطب منعش لكنه غير محبب الرائحة .. وعلى باب البناية رأى لافتة صغيرة بحجم هذا الكتيب ، عليها :

ألفريد أدلر
محلل نفسى

قال لنفسه وهو يجفف عرقه :

ـ « ما شاء الله .. المحللون النفسيون صاروا كحبات الليمون هذه الأيام .. اسم (أدلر) موح على كل حال . له رنين (أفعل التفضيل) فى اللغة العربية .. هذا الرجل أدلر من زميله .. معنى هذا أنه أفضل على الأرجح .. أعتقد أننى سأجربه .. »

هكذا جرى إلى البيت وجلب (عبير) من يدها قبل أن تفرغ من استبدال ثيابها بالكامل .. صاحت محتجة :

ـ « من هو هذا الـ (أدلر) ؟ لم أسمع عنه من قبل .. »

ـ « ولا أنا .. لكن اسمه موح بالجودة .. إنه أدلر من غيره .. بشىء من التوفيق يمكن أن يكون هو الأدلر على الإطلاق .. »

سرعان ما كانا يدخلان العيادة التى تحمل ذات الطابع العتيق .. لكن الممرضة كانت ممرضًا عجوزًا هذه المرة .. وكانت هناك رائحة سيجار قوية جدًا تزكم الأنوف .. يبدو أن التحليل النفسى لا يجوز من دون سرطان .. سرطان رئة أو لسان أو مثانة يسببها السجائر أو الغليون أو السيجار بالترتيب .. قال لهما الممرض :

ـ « أحسنتما إذ جئتما هنا .. إن د. أدلر هو أفضل محلل نفسانى فى البلاد .. فى العالم كله .. »

قال الأب ضاحكًا :

ـ « قالوا من يشهد للعروس .. »

لكن الممرض لم يضحك ، وأخذ ثمن الكشف فى حزم وعد المال مرة ومرتين ، ثم أشار لهما كى يدخلا غرفة الكشف ..

بعد لحظة وجدت (عبير) نفسها واقفة أمام الدكتور (ألفرد أدلر) ..

* * *

7ـ الرجل (الأدلر) من سواه

لم يكن أدلر Adler مهيبًا عظيم المنظر مثل فرويد .. كان أقرب إلى البدانة ، وله شارب (هتلرى) مضحك وعينان جاحظتان زرقاوان تتواريان خلف عوينات شفافة .. كان أقرب إلى جنرال نازى منه إلى طبيب ، وقد ذكرها فعلاً بالصورة المعتادة لهملر Hemler المخيف قائد الجستابو لدى هتلر ..

الغرفة نفسها كانت منمقة أنيقة ليس لها ذات الطابع القديم المغبر الخاص بغرفة فرويد ..

الإضاءة كانت ساطعة .. هنا المكان ليس مناسبًا لوحوش النفس كى تخرج ، بل هو مخصص لإلقاء نظرة فاحصة دقيقة على المريض .. كأنها غرفة فحص لدى طبيب باطنى حيث الظلام لا يفيد ..

سألها وهو ينظر لقدمها نظرة فاحصة :

ـ « لماذا تعرجين ؟ هل هناك مشكلة فى ساقك ؟ هل هو شلل أطفال ؟ »

نظرت لساقها ، ثم قالت :

ـ « لم أعرج .. ربما هو الحذاء الضيق .. أو هو التردد والتهيب .. »

كانت فيما مضى قد سمعت طبيبًا يقول : لو لم يدخل المريض على طبيبه فى شىء من التهيب والخوف ، فهو لن يشفى .. يجب أن يشعر برهبة كأنه يدخل للكاهن الأكبر وبهذا يصدق كل شىء ويؤمن بالعلاج ..

لكن أدلر كان يتصرف كضابط مباحث مشاكس :

ـ « ولماذا التهيب ؟ هل هناك ما يقلقك ؟ »

ـ « كل مريض يشعر بتهيب عندما يدخل للطبيب النفسى .. لو لم أشعر بتهيب لاحتجت إلى طبيب نفسى ! »

ـ « لاحظت أنك تنطقين الهاء بطريقة غريبة .. هل هناك سبب ما ؟ هل هذا عيب فى نطقك منذ الطفولة ؟ »

ـ « لم أنطق الهاء بطريقة غريبة .. »

ـ « خيل لى أنك تنطقين الهاء بطريقة غريبة .. »

ـ « لكن الأمر ليس كذلك .. »

ـ « حسبته كذلك .. »

هنا كان صبر الأب قد نفد ، فانفجر صارخًا :

ـ « ألن تطلب منا الجلوس بدلاً من استكمال تحقيق المباحث هذا ؟ »

قال أدلر :

ـ « هـذا صحيح .. لكنى أطلب منـك أن أكلمها على انفراد لو سمحت .. »

شعر الأب باليأس .. لا يوجد مكان فى هذا العالم يسمح لـه فيـه أن يكون مع ابنتـه .. هكذا ألقى على أدلر نظرة نارية ثم خرج ليجلس مع الممرض ..

* * *

فيما بعد عرفت أن الأب جلس مع الممرض يستنطقه عن المدعو أدلر .. قدم له لفافة تبغ ، وسأله :

ـ « هل كل هؤلاء ألمان ؟ »

صاح الممرض فى كبرياء كأنه أهين :

ـ « لا .. الدكتور نمساوى .. »

ـ « إذن هو صديق فرويد .. »

ـ « بل عدوه اللدود ! كانا صديقين فى العام 1902 ثم دب بينهما الخلاف بعدها بعشر سنوات .. فرويد يعتقد أن الجنس هو محور كل شىء فى العالم .. متشائم وقذر الأفكار .. د. أدلر يؤمن بفلسفة نيتشه عن الإنسان السوبرمان .. وقد عمت

شهرته أوروبا .. ثم اضطر إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة عندما تولى النازيون السلطة ، وعاش يحاضر هناك وحول العالم إلى أن توفى فى أسكتلندا عام 1937 .. الحقيقة أن موته المبكر نسبيًا أدى لتراجع مذهبه فى التحليل النفسى بسرعة ، وهى حقيقة غريبة .. لكى تترك تأثيرًا فى أى مجال يجب أن تعيش طويلاً جدًا .. عند الناس لا فارق بين العالم الكبير سنًا والكبير علمًا .. كله (عالم كبير) .. »

حكى له الممرض المثقف كيف أن أفكار أدلر تكونت من نيتشه والفيلسوف الألمانى (فاينجر Vaihinger) الذى ابتكر فلسفة (كما لو أن As if) التى تحاول أن تتعايش مع العالم بأن تتخيله فى صورة أفضل ..

كتاب (تفسير الأحلام) الخاص بـ (أدلر) ـ أى الكتاب الذى يشرح كل نظرياته ـ هو كتاب (الشخصية العصابية) الذى صدر عام 1912 .. محور فلسفته هو أن كل إنسان يتحرك بشكل (غائى) من أجل الشعور بالتفوق .. أن ينتقل من الشعور بالضعة إلى العظمة وربما الكمال .. هكذا تكون القوة المحركة للإنسان هى مركب النقص Inferiority complex .. هذا المصطلح الشهير جدًا الذى أدخله أدلر إلى علم النفس والأدب ولغة رجل الشارع وكل مكان تقريبًا ..

لو حدث ما يعوق المرء عن الوصول إلى الاكتمال الذى يحلم به ، فإنه يصير خطرًا على نفسه وعلى المجتمع .. لهذا يتم استخدام منهج (علم النفس الفردى) للوصول إلى هذا الفرد المعقد ..

قسم أدلر البشر إلى أنواع تذكرنا بأنماط أخرى تكررت فى علم النفس :

النوع الآخذ : هؤلاء الأشخاص الذين يأخذون فقط .. أنانيون مزعجون لا جدوى منهم ولا يفيدون الناس ... لابد أنك فكرت فى شخص يحمل هذه الصفة الآن .. على كل حال من الصعب أن يعرف هذا النمط نفسه عندما يسمع هذه المعلومة ، فكل إنسان يعتبر نفسه مثال العطاء والتضحية ..

النوع الحذر : يخشون التعامل مع المجتمع لأنهم يمقتون الهزيمة .. لو حققوا شيئًا فليس هذا راجعًا لكفاحهم ..

النوع المسيطر : هؤلاء يفعلون أى شىء للوصول لما يريدون .. ومن السهل أن يكونوا أعداء " جتمع ..

النوع الاجتماعى : كما يدل الاسم فهذا النوع من البشر ... إحم ... اجتماعى ..

* * *

هذا لا يختلف كثيرًا عن مستشفى المجانين الذى وجدت عبير نفسها فيه داخل غرفة الكشف ..

فى البداية حاولت أن تكون صريحة مع أدلر فاعترفت أنها كانت تعالج عند فرويد .. هنا انفجر الرجل صائحًا :

ـ « هذا الأحمق ! مدمن الكوكايين !! »

قالت فى دهشة :

ـ « مدمن كوكايين ؟ »

ـ « نعم .. إنه يتعاطاه بإفراط وقد نصح به مرضى كثيرين حتى جعلهم مدمنين(*) .. عندما تدمنين الكوكايين تجدين أن الجنس يكتسب أهمية كبرى ويصير كل تفكيرك مقصورًا عليه .. لقد وضع فرويد نظرياته وهو غارق تحت تأثير الكوكايين لذا اعتبر أن كل خلل فى النفس سببه الجنس .. كل شىء ألقى فوقه ظلال الشك والدنس حتى علاقة الرضيع بأمه والأب بابنه .. عندما تبكين لأن جدك مات فأنت فى الحقيقة تكبتين فرحة عارمة للخلاص منه لأن إرادة الموت انتصرت .. »

ـ « للأمانة لم يقل هذا كله .. »

(*) للأمانة لم يكن الكوكايين ممنوعًا فى ذلك الزمن وكانوا ينظرون له نظرتنا الحالية إلى السجائر .. لهذا تجد أن فرويد وإدجار آلان بو وبودلير كانوا يتعاطون علنًا ، وقد كان فرويد يعتبره مفيدًا للتركيز ..

- « لكنه قاله فى كتبه .. هذا كاف .. »

كانت تصغى فى صبر .. كيف تتأكد أيهما الصادق ؟ قديما قال التعبير الشعبى : « عدوك ابن كارك .. » .. هات سباكا يصلح حوض المطبخ بعد سباك آخر واسمع ما يقوله عن حماقة الأول وغبائه وانعدام ضميره .. سوف يشعرك بأنك كنت ضائعا ونجوت بمعجزة .. كنت تتعامل مع أسفل سباك فى العالم ، ثم رزقك الله بأنزه وأبرع سباك ..

كانت قد حكت حلمها لأدلر ، فسألها :

- « أنت الأخت الكبرى طبعًا .. »

- « نعم .. »

- « هذا مهم .. وكيف حال أختك الوسطى ؟ »

- « ليست لى أخت وسطى .. فقط أنا و(صفاء) وهى فتاة رقيقة فعلا .. تتمنى أن ترانى جثة ممزقة فى الصحراء ... »

قال أدلر وهو يشعل سيجارًا غليظًا :

- « جميل .. جميل .. هى فتاة مدللة لا تجيد التعامل مع المجتمع .. أما أنت فكنت مدللة قبل أن تولد هى .. جاءت فأصابتك عقدة الطفل الأكبر .. فقدت عرشك وأهملوك .. هكذا صرت شخصية

مزعزعة عصابية ولديك استعداد كبير للإدمان والانحراف ودخول السجن .. »

- « أشكرك .. »

- « هذه هى الحقيقة .. معظم المنحرفين والسفاحين الذين قابلتهم هم الأبناء الأكبر .. الأبناء الأصغر مدللون لا يصلحون لشىء .. الأكثر نجاحًا واستقرارًا نفسيًا هو الابن الأوسط .. »

- « الذى لم ينجبه أبى وأمى .. »

- « لو كنت مكانك لطلبت منهما أن ينجبا طفلا ثالثًا .. هكذا تنجو (صفاء) من أن تكون عالة على المجتمع وتصير ابنة وسطى .. أما أنت فقد فات أوان إنقاذك من الانحراف .. »

- « هذا مطمئن .. »

راح يتأملها بعض الوقت حتى شعرت بالارتباك ، ثم قال وهو يحك شاربه :

- « أنت قبيحة جدًا .. هل لاحظت هذا ؟ »

- « كنت أعتقد أننى مليحة ذات وجه مريح .. »

- « هذا خطأ .. ميكانزم دفاع .. أنت قبيحة وأنت تعرفين هذا فى عقلك الباطن .. هذا كون لديك مركب نقص .. وهذا أدى إلى العصاب .. »

ثم أضاف :

ـ « هذا الكابوس الذى ترينه هو نوع من الاحتجاج الداخلى على التناقض بين ما تريدين وما لا تقدرين على بلوغه .. مركب النقص هذا يحرك حياتك كلها .. لقد وضعنا يدنا على الخلل وسوف نعمل على العلاج .. سوف نقنعك بأنك لست قبيحة إلى هذا الحد .. »

قالت وقد احمر وجهها غيظًا :

ـ « لكننى بالفعل لست قبيحة .. لست قبيحة على الإطلاق .. »

كانت غادة جميلة بالفعل .. أجمل من عبير بمراحل .. فكيف يستعمل هذا الرجل عينيه ؟

قال فى هدوء :

ـ « هذا هو النكران Denial وهو ميكانيزم دفاع معروف .. أنت قبيحة كالشيطان لكنك تقتنعين نفسك بالعكس ، ونحن سنجعلك تعتقدين أنك جميلة وبهذا نقهر مركب النقص .. »

قالت مصرة على كلامها :

ـ « إذن لماذا تقتنعنى بأننى جميلة إذا كنت فعلاً أعتقد هذا ؟ »

ـ « لأنك غير مقتنعة .. »

هنا انفجرت باكية بصوت عال :

ـ « أنا مليحة .. أقسم بالله العظيم إننى مليحة وأعرف هذا ! كيف أقنعك بذلك ؟ »

8- عن الكسفريت والسباكنتا واللاوعى الجمعى ..

هى فى حقل .. تعرفه جيدًا .. إنها طفلة فى الثالثة أو الرابعة ..

تركض فى الحقل .. تطارد اليعاسيب التى لم تكن تعرف أنها كذلك ..

فجأة توقفت الصرخات ..

تعرف أنها لن تسمعها ثانية .. إنها مسرورة .. إنها منتشية .. لقد صار كل شىء لها .. تصفق بيديها وتطارد اليعاسيب ..

* * *

قال لها الأب فى غيظ وهو يجفف قطرات العرق التى ازدحمت على جبينه :

ـ « قيظ شديد .. ألم تجدى شهرًا أفضل للجنون من يونيو ؟ »

قالت فى كبرياء :

ـ « الجنون هو الذهان . وأنا لست مصابة بالذهان .. أنا مصابة بالعصاب .. »

ـ « وهل هناك فارق ضخم ؟ العصاب والذهان يرغمان المريض على وضع الكسرولة على رأسه .. »

ـ « الفارق هو قدرة الحكم على الواقع وعلى مدى الاحتياج للعلاج .. الحلم هو ذهان كامل لكن العودة منه ممكنة .. الخُصار ـ بضم الحاء ـ هو الوسواس الذى .. .. »

قال لها فى ضيق وهو يجر قدميه الثقيلتين فى الشارع :

ـ « بينى وبينك .. كان هذا الأدلر مناسبًا ومتزنًا .. لا أعرف ما هى المشكلة فى أن يتهمك بأنك قبيحة .. الكلام لا يلتصق بالمرء وقوله إنك قبيحة لن يجعلك كذلك ! »

ـ « هذا مهين لى كأنثى .. دعك من أن هاجسًا يسيطر عليه هو مركب النقص .. مركب النقص .. مركب النقص .. هذا لا يطاق .. إما أن أختار من يتحدث عن الليبيدو والنكوص والميول الأوديبية ، أو أقبل بمن يرى الحياة كلها مركب نقص .. »

هنا هتف الأب وهو يشير إلى باب بناية عتيقة :

ـ « هذا واحد آخر !! »

دنت عبير من اللافتة الصغيرة وقرأت الاسم بصوت عالٍ :

د. كارل يانج
محلل نفسى

قالت (عبير) فى دهشة :

ـ « لم أر كل هذا العدد من المحللين النفسيين من قبل .. معلوماتى إنها مهنة نادرة وإنه لا يوجد سوى 300 محلل نفسى فقط فى الولايات المتحدة كلها .. ربما لأن المرء يبحث عنهم هنا .. أتذكر أيام المدرسة أننى لم أكن رأيت مطبعة فى حياتى ، وكنت أتصور أن المطابع أماكن نادرة أو لا وجود لها ، ثم أصدرت المدرسة مجلة صغيرة طبعناها على آلة (رنيو) رخيصة .. كنت مشاركة فى هذا المشروع .. اكتشفت وقتها أن المدينة تعج بالمطابع وأنها فى كل بناية تقريبًا .. كل زقاق كنت تشم فيه رائحة حبر (الرنيو) بعد ما تعلم أنفى البحث عنه .. »

ـ « هل سمعت عن هذا الرجل من قبل ؟ »

ـ « سمعت عنه .. وأعتقد أن نطق اسمه الصحيح هو (يونج) لكن من العسير ألا يمارس المرء الخطأ الشائع .. دعك من أن الأخطاء اللغوية لها سحر خاص وتتسرب إلى اللسان بسهولة أكثر ، باعتبار أن العملة المزيفة تطرد العملة الصحيحة .. كان بقال شارعنا يطلق على الكبريت لفظ (كسفريت) وعلى المكرونة السباجيتى لفظ (سباكنتا) .. تصور أننى أجد عسرًا بالغًا حتى اليوم فى ألا أنطق (كسفريت) و(سباكنتا) ؟ »

لم يعلق الأب وإن تخيل ابنتـه تقول لعريس المستقبل : « سأشعل الموقد بالكسفريت لأعد لك بعض المكرونة السباكتنا .. » .. ستكون مصيبة بحق ربما تفوق موضوع بلل الفراش هذا ..

واجتاز المدخل وهى معه ..

كان المدخل يعج بالمرضى .. كل مريض تعس المنظر يجلس علـى درجات السلم ممسكًا بزجاجة ماء بينما يحتشد حوله سبعة مـن أقاربه .. هذا راق للأب الذى قال لعبير فى رضا :

ـ « علامة مطمئنة .. هذا طبيب بارع .. »

وهو الخلط الشهير لدى الرجـل العادى بين كفاءة الطبيب العلمية وسعة رزقه .. سعة الرزق هى التى تملأ العيادات لا المستوى العلمى ، ولكم من طبيب شديد البراعة ملأ نسيج العنكبوت مدخل عيادته بسبب عدم دخول أى مريض ..

دنا من أحد المرضى وربت على كتفه ، وقال :

ـ « سوف تشفى إن شاء الله .. ما هى عقدتك ؟ »

نظر له المريض الجالس على الأرض فى دهشة وأعاد لف التلفيع حول عنقه ، وقال :

ـ « عقدة ؟ »

ـ « نعم .. هل هو النكوص أم الارتكاس ؟ أم لعله نشاط زائـد للأنا العليا ؟ »

قال المريض فى ملل :

ـ « بل هو الإسهال .. ست مرات فى اليوم شىء متعب حقًا .. مع الكثير من الغازات .. لابد أن (الخبيزة) مع البط هى السبب .. »

نظر الأب للباقين فى حيرة ولم يفهم ، فقال أحدهم مفسرًا :

ـ « د. (سليم الأحدب) .. جهاز هضمى .. أليس هذا من تقصدون ؟ »

هنا احمر وجه الأب وجذب عبير من ذراعها ليصعدا فى الدرج .. لو قال لهم إنه ذاهب للتحليل النفسى لفروا مذعورين ..

كانت عيادة (يانج) فى الطابق الثانى .. خالية تمامًا أقرب لكهف مظلم .. هكذا يمكن فهم الأمور ويبدو الأمر مألوفًا ..

دخلا إلى الشقة .. كانت هناك ممرضة عجوز جالسة تطالع جريدة فدنا منها الأب وسألها عن ثمن الكشف .. طلبت منهما الجلوس وقيدت بعض البيانات ..

ثم سُمح لهما بالدخول .. واضح أنه من الصعب أن يقابلا محللاً نفسيًا يتركهما جالسين فى الانتظار بعض الوقت بسبب الزحام .. هذه عيادات تعمل بطريقة (من الشارع إلى غرفة الكشف فورًا) ..

إنه الدكتور (كارل يانج) يجلس وراء مكتبه ..

يمتاز هذا المكتب بشىء غريب .. إنه قاعة فسيحة مزدانة بالأقنعة الأفريقية والرماح المعلقة .. هناك دروع عتيقة وتماثيل خشبية أقرب للطوطم .. على الجدار لوحات عملاقة تمثل بعض الأساطير اليونانية القديمة وربما أساطير صينية كذلك .. هناك برديات فرعونية .. هناك تمثال رأس عملاق لزيوس وهو ينظر للقادمين مهددًا بخراب بيوتهم .. هناك وعاء كانوبى يستخدمه لإطفاء السجائر والأريكة نفسها تذكرك بسرير توت عنخ آمون فى المتحف المصرى ..

الخلاصة : تشعر بأنك تدخل مكتب تاجر آثار نصابًا أو عالم مصريات أو عالم أنثروبولوجى .. لا أعرف كيف كان مكتب (فريزر) يبدو لكنه لم يختلف عن هذا حتمًا ..

نظرت (عبير) إلى الباب من الداخل ففوجئت بصورة عملاقة لـ (فرويد) .. غريب هذا .. لكن هناك سهامًا استقرت فى عينه وفوق حاجبه .. يبدو أن (يانج) يستعمل صورة فرويد للتدريب على رمى السهام !

(يانج) نفسه كان رجلاً صارمًا له شارب كث ووجه مقتحم جرىء .. واثق من نفسه وعدوانى قليلاً .. وكالعادة كانت تلك العوينات النازية تستقر على أنفه .. فى يده لفافة تبغ سوداء

تطلق دخان ستة مصانع .. كما قلنا : التحليل النفسى الذى لا يصيب المريض والطبيب بالسرطان يكون فاشلاً ..

كان أول ما قاله هو :

ـ « معذرة .. أرجو أن تتركها وتخرج .. »

قال الأب فى غيظ :

ـ « ومن أدراك أنها هى المريض ؟ ربما كنت أنا ؟ »

ـ « لأن العصاب والفتيات الشابات متلازمان لا يفترقان .. هل تعرف معنى كلمة هستيريا ؟ إنها مشتقة من لفظة (رحم Hyster) اللاتينية .. برغم أننا نعرف أن الهستيريا تصيب الرجال كثيرًا جدًا ، لكن جرى العرف على أنها مرض نسائى .. إنه اللاوعى الجمعى .. أرجو أن تتركها من فضلك .. »

هكذا خرج الأب ليجلس مع الممرضة بينما جلست هى متوترة أمام د. يانج ..

ـ « هلمى .. من أجل فهم المزيد عن اللاوعى الجمعى احكى لى قصتك ولا تختصرى .. »

يا للملل ! لابد أنها حكت هذه القصة ألف مرة حتى هذه اللحظة ! كأنها دار سينما تعرض عرضًا متواصلاً ..

9ـ عزيزى يانج ..

(كارل يانج Jung) .. اللاوعى الجمعى ..

العالم السويسرى الشهير ـ غير اليهودى لشدة الغرابة ـ الذى ولد عام 1875 وتوفى عام 1961 .. والذى جعل علم النفس يتمدد ويأخذ مصادره من الأديان والأساطير وتراث الشعوب والأحلام والأغانى الشعبية وحتى الأطباق الطائرة .. يعرف متابعو هذه السلاسل أن (يانج) كان له اهتمام شديد بعملية تحضير الأرواح مثلاً... ليس لأنه يؤمن بها ، ولكن لأنه يؤمن بالأسرار التى يكشف عنها اجتماع عدة أشخاص فى مكان مظلم مغلق ليمارسوا طقسًا رهيبًا كهذا .. ولو لم يكن يانج عالمًا لكان ساحرًا مبهرًا ..

منذ طفولته آمن بأنه مهتم بعلم النفس .. درس فى (زيورخ) وراسل فرويد وأهداه أحد كتبه ، ثم فى العام 1913 أصدر كتابه الشهير (سيكولوجية اللاوعى) .. بعد الحرب العالمية الأولى تمكن من أن يجوب العالم .. زار أفريقيا والهند .. رأى الشرق كثيرًا حتى آمن بأن الجانب الروحى من الإنسان مهمل فى الغرب ويجب أن تتم تقويته أكثر .. يجب أن تمتزج الروح بالمادة ..

كانت العلاقات بين (يانج) وفرويد قد بدأت تتوتر .. وفى لحظة ما بدا أن كلا العبقريين لا يطيق الآخر .. خلافهما كان حول طبيعة الليبيدو ! يانج كان يؤمن أن الليبيدو قوة خلاقة وقد قسم البشر إلى نوعين هما المنقلب للخارج extravert والمنقلب للداخل introvert ، حيث يخرج الليبيدو للعالم الخارجى أو يظل بالداخل ..

نعم .. هكذا يختلف العلماء حول الليبيدو لا حول المال الذى اقترضه أحدهم ولم يعده ، أو الذى استأثر لنفسه بفتاة الآخر .. هذا الخلاف كان عنيفًا لدرجة أن (يانج) ألقى محاضرة فى الولايات المتحدة عن دور التحليل النفسى فى تأريخ حياة (أمنحتب الرابع) ، وكانت آراؤه صادمةً لدرجة أن فرويد سقط مغشيًا عليه !!

عندما قامت الحرب العالميةُ الثانية ، اتهم (يانج) بأنه تعاون كثيرًا مع النازيين .. حاول هو نفى هذا بأنه كان يحاول لعب دور الوسيط بين النازيين والعلماء اليهود .. النازيون كما قلنا كانوا يرتابون فى علم النفس باعتباره علمًا يهوديًا ، وكان على (يانج) أن يظهر كما قال كوجه غير يهودى يقبله النازيون .. فى الوقت الذى كانت فيه كتب فرويد تحرق فى الميادين العامة فى ميونيخ ..

* * *

كسفريت وسباكنتا .. سباكنتا وكسفريت ..

* * *

انتهت (عبير) من سرد حلمها المعتاد الممل ..

ثم صمتت منتظرة أن يفسر لها الرجل ما هنالك .. ما هى المشكلة ..

قال فى ثقة :

ـ « إنه اللاوعى الجمعى collective unconscious .. »

لم تفهم .. هل معنى هذا أنها بخير أم فى حالة خطرة ؟

دفن لفافة التبغ فى المطفأة ، وقال ضاحكًا :

ـ « لو أنك ذهبت لهذا المجنون (فرويد) فى عيادته ، لقال لك إن حلمك يعبر عن الكبت .. هناك ثعابين وهذا مهم جدًا عنده .. هناك دهاليز وهناك سمك .. هذا كفيل بأن يسيل لعابه .. هناك قدمان حافيتان وهناك سقطة من أعلى .. كل شىء فى حلمك معد كى يجد فيه فرويد شيئًا .. »

كتمت ضحكتها .. كيف لو عرف ؟ هذا هو ما حدث فعلاً وحرفيًا ..

قال (يانج) وهو يشعل لفافة تبغ أخرى :

ـ « لو سمعت أنك طلبت رأى فرويد أو أحد تلاميذه فلسوف أنسفك .. أنا كنت أعتبر نفسى من حوارييه ، ثم عرفت الحقيقة وسقط الوهم .. إنه مجرد نصاب وهو يلفق الأبحاث طيلة الوقت .. لم يشف أيًا من حالات الهستيريا التى يزعم أنه شفاها .. »

هكذا ابتلعت لسانها .. كانت على وشك أن تتعامل بصراحة معه ، ثم وجدت أن هذا مستحيل فعلا ..

أردف يانج وقد بدا أن موضوع شتيمة فرويد يروق له :

ـ « طريقته فى التحليل النفسى عجيبة .. إنه يؤمن أن اللاوعى هو صفيحة القمامة التى تدارى أكثر رغباتنا عفونة .. هذا خطأ .. اللا وعى عملية خلاقة متجددة تتراكم فيها خبرات الأجيال .. ما نراه فى الحلم ليس إلا رموزًا تراكمت عبر الأجيال من الأسطورة القديمة والحكاية الشعبية والشعر .. إنه اللاوعى الجمعى .. كل هذه الأشياء موجودة فى اللا وعى وعلينا أن نقيم علاقة طيبة معها كى نعيش حياة سليمة .. لو غرقنا فى اللا وعى جننا .. ولو ابتعدنا عنه صرنا متبلدين .. طفولتك تشبه طفولة البشرية .. الطفل الرضيع هو ذاته رجل الكهف بمعتقداته .. هكذا يمكن فهم الأمر .. أنت تنضجين وتصيرين فردًا مفيدًا للمجتمع وكذلك تتقدم البشرية وتنضج .. العصاب ليس إلا العودة للمراحل الأولى .. للإنسان البدائى .. »

لم تفهم شيئًا على الإطلاق لكنها كانت مسرورة .. الكلام يبدو صائبًا ..

قال لها :

ـ « هناك مفهوم الظل .. الظل هو ما يرفض الشخص الواعى أن يعترف به فى نفسه .. وهو يظهر فى الحلم على شكل أشباح سوداء من نفس جنس الحالم ، ما تفعلينه أنت هو أن تنكريها أو تحوليها أو تتوحدى معها أو تسقطيها .. »

قالت له وقد تذكرت شيئًا :

ـ « أحيانًا أشعر بأننى غير كاملة الأنوثة .. هناك رجل فى أعماقى يمكننى أن أسترجعه بسهولة .. »

قال ضاحكًا :

ـ « كل رجل يحمل دون وعى جزءًا من الأنثى فى أعماقه واسمها (أنيما Anima) كما أن كل أنثى تحمل جزءًا من الرجل هو (الأنيموس animus) . أحيانًا نشعر بحب أو انجذاب مفاجئ لشخص ما .. السبب هو أننا نرى الأنيما الخاصة بنا فيه .. »

ـ « هل هذا هو تفسير الحب من طرف واحد ؟ »

ـ « بالضبط .. فجأة ترين رجلاً .. وتعتقدين أنه يحمل الأنيموس الخاص بك .. الأنيموس فيك هو مصدر التفكير المنطق

العقلانى ، بينما (الأنيما) فى الرجل هى مصدر التفكير المتهور غير المنطقى .. »

ـ « هذا يشبه المفهوم الصينى عن .. عن .. »

ـ « الين واليانج Yen and Yang .. نعم .. إلى حد ما .. »

الحقيقة أن كل هذا بدا لها أقرب إلى الفلسفة .. ذكرها بأجواء (فلاسفة فى حسانى) لا أعاد الله تلك الأيام السوداء ولم تكن بعيدة عن الحقيقة إلى هذا الحد .. بالفعل يُنظر لـ (يانج) بجدية أكثر بين الفلاسفة وعلماء الاجتماع أكثر مما يُنظر له بين المحللين النفسيين .. مراكز تحليل نفسى محدودة جدًا هى التى تمارس التحليل (اليانجى) ..

قالت له وقد بدأت تتعب من كل هذا الشرح :

ـ « حسن .. وماذا عن مشكلتى أنا ؟ »

ـ « إنه اللاوعى الجمعى ! فكرة السقوط قديمة جدًا منذ كان أجدادنا ينامون على الأشجار وتتخلى يد الواحد منهم عن غصن الشجرة فيسقط .. هذا الحلم ينتهى قبل لمس الأرض .. فى حالتك ينتهى بسبب شعور البلل .. لقد بعثت هذه الفكرة نتيجة للعصاب .. »

ـ « جميل .. لكن هذا لا يساعدنى كثيرًا .. »

ـ « بالعكس .. فهم لغة الحلم الرمزية هو بداية العلاج للعصاب .. يجب أن تفهمى وأن تعقدى علاقة طيبة مع هذه الرموز .. أنه اللاوعى الجمعى كما تعرفين .. »

ثم أغلق المفكرة ، وقال فى رضا :

ـ « هذا عمل طيب بالنسبة لأول جلسة .. فى الجلسات القادمة سوف نفهم أكثر .. »

* * *

10ـ بعض التاناتوس ..

على الباب سألها أبوها وهو يفرك شاربه فى شغف :

ـ « هيه ؟ سبع والا ؟ »

ـ « لا هذا ولا ذاك .. المزيد من اللاوعى الجمعى .. »

ثم وجدت أنه يمسك بمجموعة من أوراق اللعب فى يده .. دققت النظر فوجدت أنها تحمل رسومًا غريبة .. هذه أوراق تاروت ! أبوها يلعب التاروت مع الممرضة العجوز !

ـ « ما معنى هذا يا أبى ؟ »

قال فى خجل :

ـ « أوراق تاروت . إن الممرضة تلعب بها ، وتقول إنها تقود إلى الكثير من فهم طفولة العقل البشرى ومفهوم الأسطورة .. »

ـ « دعك من هذا الهراء .. فقد تأخرنا على الغداء .. »

هكذا وضع ما معه من أوراق وشكر الممرضة ولحق بابنته .. سألها فى حيرة وهو ينزل معها الدرج وسط جحافل المرضى المصابين بالإسهال ، وينتظرون الشفاء على يد د. (سليم الأحدب) عبقرى الخبيزة مع البط :

ـ « لا أفهم مشكلتك .. هل هى الرغبات الدفينة التى تكبتينها وسببت العصاب ؟ أم هو مركب النقص ؟ أم هو الوجدان الجمعى ؟ أم أنت ببساطة مجنونة أو ممسوسة ؟ »

ـ « ربما هذا كله يا أبى .. »

* * *

هى فى حقل .. تعرفه جيدًا .. إنها طفلة فى الثالثة أو الرابعة .. تركض فى الحقل .. تطارد اليعاسيب التى لم تكن تعرف أنها كذلك ..

من جديد تتعالى الصرخات هذه المرة .. هذه أمها تركض حافية وتلطم خديها .. هناك رجال كثيرون يقرءون القرآن .. هناك صندوق يحمله رجلان .. هناك ..

* * *

من جديد كانت الثعابين ..

الثعابين التى تملأ الردهة وتزحف فى كل مكان .. هل الثعابين تتسلق الجدران ؟ ربما .. إنها تفعل هذا هنا على الأقل ..

كانت تقف على باب المطبخ عالمة أنها لن تستطيع الوصول إلى غرفتها أبدًا .. حافية القدمين وهذا يجعلها هشة جدًا ..

تقول للثعابين وهى تبعدها بيدها :

ـ « أنت لا تلدغين .. أنا أعرف هذا .. أنت مجرد رمز فرويدى للذكورة .. لن أخاف منك .. »

ولكن أين أبى ؟ أين أبى ؟ يجب أن يكون موجودًا لأن الأمر يتعلق بمركب (اليكترا) ..

الثعابين جاءت على رائحة الأسماك .. أسماك ؟ لابد من أسماك لأن هذا رمز فرويدى آخر .. خالها يكره أغانى (أم كلثوم) .. لكن خالها ليس هنا .. يجب ألا يكون هنا وإلا انتهز فرويد الفرصة ودمجه فى تفسير الحلم ..

تطير .. الطيران هو الزواج عند فرويد .. الطيران والقطار والعملية الجراحية . كلها تعنى الشىء ذاته .. وبما أنها ستسقط فهذا يعنى أنها غير موفقة فى حياتها العاطفية ..

أشباح سود قادمة .. هذا هو الجزء الخاص بـ (يانج) .. الظل .. لابد أنهن إناث ..

فتاة طفلة جوار بئر .. لكنها لا ترى وجهها .. كأن هناك من لونه بالأسود ..

الماء يتساقط فوق رأسك .. الماء يبلل كل شىء .. الماء ..

يبدو أن هذا وقت التبول اللا إرادى .. أنت غير راغبة فى ذلك لكن الواجب هو الواجب .. سوف تملأ (صفاء) الدنيا صراخًا .. لكن لا يهم .. لن يتم الكابوس من دون تبول حتى وإن لم يرق لها هذا ..

ثم السقطة .. السقطة التى يمكن تفسيرها على طريقة (يانج) ..

المزيد من اللاوعى الجمعى .. العصاب ..

آهههههههه !

* * *

من جديد الأم تقف باكية ..

(صفاء) تملأ الدنيا سبابًا وهى تقف على بعد مترين من الفراش :

ـ « أنت مخبولة ! لابد من أن نجد لك علاجًا جذريًا أو تلبسى حفاضة قبل النوم ! »

الأب محتقن الوجه يراقب هذا كله ويفكر فى عمق :

ـ « إذن لم يفدك العلاج النفسى بعد .. الأمور تزداد سوءًا أو على الأقل لم تتحسن .. »

جلست (عبير) على حافة الفراش وغطت وجهها ، ثم قالت :

ـ « الحقيقة أننى ارتكبت الخطأ الذى يقع فيه المرضى دومًا .. لم أستكمل العلاج مع طبيب واحد ولم أعط أحدهم فرصة لاستكمال ما بدأه .. لكننى .. »

وقبل أن يفهم أحد ما حدث كانت قد نهضت .. ركضت نحو الصالة .. فتحت الشرفة الكبيرة هناك .. ووضعت ركبتها على السور ..

الظلام الرهيب فى الخارج .. السقوط .. لحظة قاسية ثم ينتهى كل شىء ..

أم يبدأ ؟؟؟؟؟؟؟

من الغريب أنها لم ترغب فى الانتحار ، ولم تقبل الفكرة قط .. كانت متدينة .. لكنها وجدت نفسها تفعل ذلك من دون أن تعرف السبب .. كان جسدها يتصرف بإرادة مستقلة عن إرادتها ..

لا تدرى متى ولا كيف شعرت بيد أبيها القوية تطبق على ساعدها وتجرها إلى الداخل ، بينما أمها توصد الشيش بإحكام .. يلقونها على الأريكة .. الأم تولول :

ـ « لابد أنه عفريت قد مسك ! لا تفسير سوى هذا ! »

(صفاء) أختها تراقبها فى مزيج من الندم وعدم التصديق ، كأنها تقول : لن ينطلى علىٍ هذا التمثيل .. أتمنى لو تركك أبى لنرى إن كنت ستفعلينها حقًا .. لا أصدق يا عزيزتى ..

أبوها يقول وهو يوجه لها صفعة خفيفة جدًا على خدها أقرب إلى التربيت :

ـ « إن لم تكن الفضيحة فهو الكفر .. أترانا قصرنا فى شىء أو لُمناك على شىء ؟ أقضى اليوم كله فى عيادات المحللين النفسيين ، تاركًا مصالحى ، وأسمع كل ما يقولون عن النكوص والليبيدو واللاوعى الجمعى .. بعد هذا كله تنوين أن تحرقى قلبى عليك ؟ »

كانت تريد أن تفسر ..

فعلاً هى لم تتعمد شيئًا من هذا .. ليتهم يفهمون .. كان جسدها يتصرف على هواه ودون أن يطلب رأيها ..

قال الأب فى حزم وبلهجة من لا يقبل المناقشة :

ـ « سنعود غدًا إلى فرويد .. لقد بدأنا به وسنعود له .. »

* * *

لم يكن فرويد موجودًا فى اليوم التالى .. كان فى النمسا يجرى واحدة من جراحات استئصال سرطان الفم الثلاثين التى أجراها ..

على أنه عاد فى اليوم التالى بخير كما يحدث دومًا فى فانتازيا ، وكان يدخن الغليون كالعادة ..

قال للأب عندما سمع تفاصيل ما حدث :

ـ « هذا متوقع .. »

ـ « ما هو المتوقع ؟ »

ـ « إن هذا يثبت رأيى حول إرادة الموت (الثاناتوس) Thanatos .. كل كائن حى يحمل ميلاً غريزيًا فطريًا للموت والعودة إلى الحالة العضوية الأولية .. هناك رغبة الحياة (الإيروس Eros) ورغبة الموت .. هذا هو الاكتشاف الثورى الذى توصلت له متأخرًا ، وجعلنى أغير رأيى بصدد طاقة الليبيدو .. الرغبة فى الجنس جزء من رغبة الحياة ، لكنها ليست كل شىء .. »

ـ « وما دخل هذا بمحاولة البنت أن تثب من الشرفة ؟ »

ـ « لا شىء . ما فعلته طبيعى جدًا وجزء من تكوين الكائن البشرى .. »

ـ « هل يجب أن يثب الكائن البشرى الطبيعى من الشرفة ؟ »

ـ « فقط عندما يكون طبيعيًا أكثر من اللازم .. وهذا يعنى أننا غير طبيعيين إلى هذا الحد .. »

ـ « تعنى أننا مجانين لأننا لانملك درجة كافية من الجنون ؟ »

ـ « هذا صحيح .. »

تحول وجه الأب إلى ثمرة طماطم ناضجة ، وراحت الشرايين تنبض فى فوديه .. لو ترك لنفسه العنان لقتل فرويد بعد وفاته بستين عامًا ..

لكن منظر ابنته وهى تهرع إلى الشرفة لترمى بنفسها .. منظر الفراش المبتل .. كل هذا جعله يقرر أن يصمت .. إن اضطره الأمر للتعامل مع شيطان مصاب بالجذام والسل فسيفعل ..

هكذا غادر الغرفة بينما استلقت (عبير) على الأريكة ..

قال لها (فرويد) من وراء ظهرها :

ـ « المشكلة أنك تقاومين بشدة .. ميكانيزمات الدفاع تعمل عندك بشكل عنيف .. »

ـ « لا توجد عندى ميكانيزمات دفاع .. هذه أشياء لا أفهمها .. »

ـ « بللت الفراش بالبول وهذا أمر خطير .. ألا ترين هذا ؟ »

ـ « ليس خطيرًا لهذا الحد .. (صقاء) هستيرية ومجنونة .. »

سمعتْ صوته يبتسم .. يبدو هذا غريبًا لكنها تعلمت أن تسمع ابتسامته فى الظلام .. قال لها :

ـ « الآن أنت تمارسين نوعين من ميكانيزمات الدفاع .. الإنكار Denial باعتبار التبول الليلى شيئًا غير مهم .. والإسقاط Projection لأنك تعتبرين أختك هستيرية .. هذا لأنك تخشين أن تكونى هستيرية .. »

ثم سألها :

ـ « هل لك هوايات ؟ »

ـ « أحب الرسم .. هل هذا مشكلة أيضًا ؟ »

ـ « هذا ميكانزم دفاع آخر هو (التسامى أو الإعلاء sublimation) .. حيث تحولين عواطفك الضارة إلى شىء راق سام .. أعتقد أن كل فنان يفعل الشىء ذاته .. العدوانى يصير مصارعًا أو محاربًا شجاعًا .. هاوى الاستعراض المرضى Exhibitionist يصير بطل كمال أجسام والفتاة تصير (بالبرينا) .. هل تحبين قراءة الروايات ؟ »

قالت فى براءة :

- « نعم .. لكن الأدباء لا يلتزمون التهذيب اللازم .. يحشرون الكثير من المشاهد المشينة التى تخجلنى وتخنقنى .. لا أعرف لماذا يفعلون هذا ؟ »

قال فرويد وهو ينفض غليونه :

- « هذا ميكانزم دفاع تتبعه الفتيات كثيرًا اسمه التعويض Compensation .. إن هذا الاشمئزاز ناجم عن أنك تهتمين فعلاً بهذه الأمور وبشدة .. وبما أنك عاجزة عن قبول هذا من نفسك فإنك تتخذين موقفًا مضادًا .. الفتيات الحساسات اللاتى يلاحظن هذه الأشياء أكثر من سواهن ، هن فى الحقيقة مهتمات بها جدًا .. عندكم فى العربية يقولون : (يتمنعن وهن الراغبات) .. بينما فى الأدب العالمى ينتشر نمط المرأة المحافظة العصابية التى تخفى براكين تحت جلدها .. هناك عالم فرنسى ألف كتابًا فجاءته امرأة محافظة فى حفل ، ولامته على أنه ذكر بعض الألفاظ الجنسية فى كتابه .. مثلاً ذكر كلمة كذا عشرين مرة وكلمة كذا عشر مرات .. قال لها : إذن أول شىء فعلته يا سيدتى عندما وجدت الكتاب أن بحثت عن هذه الكلمات ؟!!! »

نهضت (عبير) من رقدتها لتجلس ، وصاحت فى غيظ :

- « لماذا لا تقبل أن يوجد شىء واحد برىء فى العالم ؟ »

- « لأنه لا يوجد شىء واحد برىء فى العالم .. »

- « لماذا لا تفترض أن الفتاة التى تكره قراءة الأدب المكشوف تقول ذلك لأنها فعلاً تكره قراءة الأدب المكشوف ؟ »

والحقيقة أن (عبير) وضعت يدها فعلاً على مأخذ مهم ضد فكر فرويد .. هناك فيلسوف يدعى (بوبر) قال إن صحة أية نظرية علمية يأتى من قابليتها للنفى ، وهذا يعنى أن نظريات فرويد علم زائف لا قيمة له .. ما لا يمكن نفيه لا يمكن إثباته .. فرويد يقول إن عندك ميولاً خفية .. لو أنكرت إن عندك هذه الميول فهذا لا قيمة له عند فرويد ، لأنك تمارس الكبت والرقابة على عقلك الباطن .. إذن أين يوجد الرجل الذى لا يملك ميولاً خفية ؟ منذ البداية يفترض فرويد أنه لا وجود له .. الموقف يشبه أن يسألك المحقق : هل قتلت (شلاطة) ؟ إذا قلت إنك لم تقتل (شلاطة) ، اتهمك المحقق بأنك تكذب وأنه توقع هذه الإجابة .. إذن ما قيمة السؤال ؟ كيف تثبت العكس ؟

وتنهدت (عبير) ..

حقًا سوف يعلمها (فرويد) هذا كيف تشك فى نفسها .. تشك فى كل شىء ..

11 ـ ميكانيزمات دفاع

أمها كانت منهمكة ..

فى حياة كل أم لحظة تفتح فيها خزانة الثياب ، وترص ثياب الشتاء أو ثياب الصيف ، وتضع بين ثناياها قطع (النفتالين) حتى عودة الفصل ذاته .. هذه هى اللحظة .. تجد شيئًا هنا أو هناك فتتوقف العملية إلى أن تفحص الشىء جيدًا وتتذكره ..

هكذا كانت منهمكة فى طى ثياب الشتاء ، وهى مهمة تأخرت كثيرًا .. كان يجب أن تقوم بها فى مايو لكنها أجلتها إلى يونيو ..

(غادة) /(عبير) تجلس على الفراش تثرثر مع أمها .. و(صفاء) عند صديقة لها ..

ألقت الأم بمظروف يحوى مجموعة من الصور على الفراش جوار (عبير) وواصلت ما تقوم به ..

مدت (عبير) يدها تتفحص الصور بذهن شارد .. معظمها صور بالية بالأبيض والأسود تبدو كأنها أفيشات فيلم من أفلام (فاتن حمامة) و(عماد حمدى) .. الزوجان الشابان يمشيان على الكورنيش وبطن الأم منتفخة بـ (عبير) طبعًا .. زفاف شخصين ما

عندما كانت حفلات الزفاف تقام على أسطح البيوت .. إلخ ..

لابد أن (عبير) رأت هذه الصور ألف مرة من قبل ، لكنها لم تدقق النظر فيها ..

فجأة رأت صورة طفلة .. طفلة رضيعة عمرها عام واحد تقريبًا .. تجلس فى جلباب واسع مريح وتضحك ضحكة مشرقة ..

لكن (عبير) لم تشعر براحة ..

شىء فى هذه الصورة أشعرها بالرعب .. راحت يدها ترتجف .. ألقت نظرة على أمها فوجدتها تشب على أطراف أصابعها محاولة الوصول إلى أعلى رف فى خزانة الثياب ، هكذا مدت (عبير) يدها وأخفت الصورة فى جيبها ..

لماذا شعرت بالذعر ؟

ما سر هذه الصورة ؟

* * *

هى فى حقل .. تعرفه جيدًا .. إنها طفلة فى الثالثة أو الرابعة ..

تركض فى الحقل .. تطارد اليعاسيب التى لم تكن تعرف أنها كذلك ..

هناك من يصرخ .. صرخات رفيعة جدًا من خلفها ..

تنظر إلى الخلف للحظة ثم تواصل الركض ومطاردة اليعاسيب ..

فجأة توقفت الصرخات ..

* * *

كانت تشعر بصداع عظيم ..

نهضت إلى الحمام وهى تترنح ، وتأملت وجهها فى المرآة فوق الحوض فرأت أنه يشبه وجه جثة انتفخت وتعفنت بعد ما ظلت ملقاة فى الصحراء أسبوعًا ..

ماذا حدث ؟ بم أصابتها تلك الصورة المسحورة ؟

إنها .. موشكة .. على .. فقدان الوعى .. ..

لكنها نظرت إلى عينيها فى المرآة ، وهتفت :

ـ « تذكرى يا فتاة .. هذه ميكانيزمات دفاع .. لهذه الصورة معنى رهيب بالنسبة لك ؟ .. لهذا يعاقبك عقلك الباطن على اختراق هذا الحجاب .. »

هناك من يدخل الحمام ..

أبوها يقف هنالك وراءها وينظر لها فى دهشة :

ـ « (غادة) .. هل أنت بخير ؟ »

تماسكت إلى أن استطاعت أن تقف ثم مدت يدها فى جيبها وأخرجت الصورة :

ـ « أبى .. من هذه ؟ »

نظر إلى الصورة وقطب جبينه .. فقط تنحى بضع خطوات خارج الحمام ليقرأ الفاتحة فى الصالة ، ثم قال :

ـ « أنت تعرفين .. هذه أختك (مى) يرحمها الله .. لماذا تسألين ؟ »

نظرت له فى عدم فهم ، فقال :

ـ « تعرفين (مى) .. الغرق فى أرض (الدلنجات) .. لم نعد نتكلم عنها لكنك تعرفين .. »

تعرفين ..

تعرفين ..

* * *

ترقد على الأريكة أمام فرويد .. تستدير لترمق عينيه النارتين خلف عويناته ، وتقول :

ـ « نعم . أعرف .. كانت لى أخت .. كانت تصغرنى عامًا وتوفيت وأنا فى الثالثة أو الرابعة .. هذا يحدث فى عائلات كثيرة .. الطفل الذى مات وهو رضيع يُعامل كأنه لم يوجد .. أعرف أن لى أختًا توفيت فى صغرها لكنى لا ألاحظ التفاصيل .. »

قال بصوته العميق :

ـ « أو لا تذكرينها .. »

ـ « ربما .. »

ـ « أو لا تريدين أن تذكريها !! »

ثم فتح المفكرة وبدأ يدون ..

ـ « أريد أن تغمضى عينيك .. أنت الآن فى لحظة وفاتها .. لماذا استعملت تعبير (لا ألاحظ التفاصيل) ؟ لا أحد يتكلم بهذه الطريقة .. يجب أن تقولى : (لا أذكر التفاصيل) .. »

ـ « ربما .. إنها عثرة لسان .. »

ـ « نعم .. نعم .. عثرة لسان ، وعثرات اللسان ليست صدفة .. أنت الطفلة الأولى فى الأسرة .. (صفاء) لم تولد بعد .. أنت الملكة المتوجة .. كل ما تفعلين ظريف حتى لو بللت البساط ببولك أو وضعت إصبعك فى أنفك .. أبوك لك بالكامل .. (غادة) الطفلة المدللة التى

يعود الأب من عمله ليلعب معها .. ثم جاءت (مى) .. الشيطان الذى جاء ليسلبك عرشك .. كل شىء صار لها .. كل وقتهما مخصص لها .. يتزامن مجىء الطفل الثانى دومًا مع كبر الطفل الأول وفهمه للمسئوليات الملقاة عليه .. يبدأ اللوم .. تبدأ التربية .. تبدأ بعض القسوة .. من هنا يشعر الطفل الأول أن كل هذا حدث لأن الوغد الثانى جاء .. »

ـ « أنت تبالغ .. »

ـ « من ثم ليس من المبالغ فيه أن نفترض أنك تمنيت لو تزول من على وجه البسيطة .. لم تتمنى لها الموت لأن الأطفال لا يعون فكرة الموت قبل سن العاشرة .. هو بالنسبة لهم (عدم وجود) لا أكثر .. »

ـ « أنت مجنون .. »

كانت تبكى .. هذا الشىء الحار المالح الذى يسيل على جانبى فمها ليس دمًا .. إنه دموع ..

* * *

أنت فى حقل ..

أرض الدلنجات التى ورثها أبوك ..

من النادر أن يذهب هناك لكنه فى ذلك اليوم صمم على أن يصحب الأسرة كلها ..

أنت تلعبين .. تطاردين اليعاسيب .. صوت أم كلثوم يخرج من الراديو الصغير الموضوع على ملاءة فوق الأرض « أغداً ألقاك ؟ يا خوف فؤادى من غدى .. »

خالك يصيح ضاحكًا إنه لا يحب أم كلثوم .. يقول أبوك فى غضب :

ـ « الست يا جاهل .. الست . هل هناك من لا يحب الست ؟ »

يصيح خالك الشاب إنه الوحيد .. ثم يهشم البطيخة التى ابتاعها بقبضته ليكتشف أنها بيضاء تمامًا .. تقول الأم فى استفزاز :

ـ « كنت طيلة حياتك أسوأ من يشترى البطيخ .. »

أنت تركضين وراء اليعاسيب ..

أبوك يعلن أنه يجيد لعب (الراكيت) .. يخرج ثلاثة مضارب .. مضرب معه ومضرب مع خالك ومضرب مع أمك .. أمك تركض .. للمرة الأولى تركض .. بلا رشاقة .. تتعثر وتلهث .. تلاحق الكرة ..

ضحكات .. مرح ..

أنت تراقبين ما يحدث وتطاردين اليعاسيب ..

دودة أرض عملاقة تزحف .. أنت صغيرة جداً .. قلت إنها ثعبان وارتجفت رعبًا ..

ابتعدت عنها ..

« هناك لوحة عملاقة على الجدار تظهر فتاة طفلة فى حقل تجلس جوار بئر .. »

أنت ترين هذا المنظر .. ترين (مى) تزحف مبتعدة من حيث كانت تجلس فوق الملاءة .. تزحف ..

ترين هذه البئر التى تعتليها طلمبة صغيرة .. الماء يترقرق ذهبيًا جميلاً فى ضوء الشمس ..

(مى) تزحف نحو البئر ..

(مى) تزحف ..

تفتحين فمك لتنادى الكبار « لكن أين ذهب صوتها ؟ لا صوت على الإطلاق .. إنها تصرخ لكن لا يخرج شىء .. » كلهم هناك فى الجانب الآخر من الحقل يصخبون ويتكلمون بصوت عال .. تعالوا وساعدونى « إن أباها هناك .. لابد أن أباها سيعرف ما يجب عمله .. »

لم تكن هناك صرخات .. فجأة دنت (مى) من البئر ثم توارت ..

ظللت صامتة لحظة تراقبين المشهد ثم ابتعدت ..

رحت تطاردين اليعاسيب ..

من خلفك تتعالى الصيحات (مى) .. (مى) ..

لقد افتقدوا الطفلة الرضيعة ..

يبحثون .. يبحثون ..

سوف يمر وقت طويل قبل أن يجدوا الجثة الطافية فوق مياه البئر..

لن تعودى هنا أبدًا .. لن يعود هنا أحد ، وسوف يبيع أبوك الأرض لأنه لا يريد أن يراها ثانية ..

* * *

كانت تبكى وتغطى وجهها ..

(فرويد) من ورائها يواصل الكتابة ودخان الغليون يتصاعد كثيفا :

ـ « لقد نسيت ما حدث .. إنه فقدان الذاكرة الهستيرى وهو من ميكانيزمات الدفاع الشهيرة .. ما هو شنيع أكثر من اللازم هو ببساطة لم يحدث .. لكن عقلك الباطن ظل يحمل الوصمة .. أنت أردت قتل (مى) .. أنت قتلت مى .. كان بوسعك أن تصرخى

وتنادى الكبار ، لكنك لم تفعلى .. لماذا ؟ لماذا احتبس صوتك ؟ لأنك أردت أن تموت .. لم تغفر لك الأنا العليا هذا .. عاقبتك بالعصاب .. فى كل كابوس تعاقبك الأنا العليا من جديد على هذه الجريمة ثم تصحين من النوم مبتلة ملوثة بوصمة تجعل الناس يشمئزون منك .. فى كل كابوس تعدمك الثعابين .. من أين جاءت الثعابين ؟ من دودة الأرض التى رأيتها .. »

قالت والمخاط يسيل من أنفها بلا انقطاع :

ـ « أنت فسرت الكابوس من قبل ، وقلت إنه كبت جنسى .. »

ـ « كنت مخطئًا .. لم تكن معى كل الأوراق .. الخطأ شائع جدًا فى التحليل النفسى .. لكننا قد لمسنا الحقيقة وعلينا أن نبرئ الطفلة الصغيرة (غادة) .. ما كان بوسع طفلة فى الثالثة أن تفعل أى شىء .. أنت لم تقتلى (مى) . إهمال الكبار هو المسئول .. يصعب أن نقنع الأنا العليا بشىء لأنها لا تعترف بالطفولة والبلوغ .. لكننا سنتوصل لهذا فى النهاية .. »

وساد صمت طويل لا يقطعه إلا صوت دخان الغليون (دخان الغليون له صوت هنا) .. ثم قال كأنه يطمئن نفسه :

ـ « سنتوصل لهذا فى النهاية .. »

* * *

عبير وعبير وعبير

(مسرحية من فصل واحد)

(نفس الديكور والإضاءة) ..

<u>الشخصيات :</u>

نفس الشخصيات ..

تدخل (عبير هى) متمايلة وتحك شعرها فى حركة غير أنيقة بالمرة ..

عبيــــر هى :أعتقد أن هذا الصداع قد انتهى .. يبدو أن الكابوس لن يعود.

تدخل (عبير أنا عليا) ممسكة بكتابها المعتاد وإن بدا عليها الرضا ..

عبير أنا عليا :من الصعب أن أعتبر (غادة) /(عبير) بريئة من قتل (مى) ، لكن علىّ أن أقبل هذا .. الطبيب أقنعنى أنه ما كان بوسعها أن تفعل شيئًا وهى فى الثالثة .. لكن بالنسبة لى لا وجود للزمن .. الرضيع مسئول كالكبير بالضبط ..

عبيــــر هى : مشكلتك إنك تطالبين الناس بما هو فوق طاقتهم .. من الطبيعى أن يغار الطفل ويمقت ويتمنى الخلاص من أعدائه ..

عبير أنا عليا :مهمتى أن أطالب الناس بما فوق طاقتهم ..

عبيــــر هى :سوف تشفين من هذه الهلاوس وتتعلمين كيف تستمتعين بحياتك بلا ألم.

عبير أنا عليا :لا أتمنى ذلك .. لا يجعلنا عظماء سوى ألم عظيم .. هكذا قال (ألفريد دو موسيه) ..

عبيــــر هى :تصورى أننى أجد فرويد هذا جذابًا .. عجوز كئيب مصاب بالسرطان ، لكن فيه جاذبية لا توصف ..

عبير أنا عليا :تذكرى مبدأ التحويل .. العامل الذى (لا يمكن أن نحلم بأهميته) كما وصفه (فرويد) .. من المعتاد أن تحب المريضة طبيبها النفسى وربما تتمثل فيه الأب ..

عبيــــر هى :لا يهمنى التفسير .. المهم أنه يروق لى ..

عبير أنا عليا :لن تتغيرى أبدًا .. ذات الدنس والتفكير فى صغائر الأمور ..

تدخل (عبير أنا) مندهشة ..

عبير أنا عليا :تتشاجران من جديد ؟ (عبير) الكبيرة تعانى بالفعل من هذا الصراع ..

عبيــرهى : لا أطيق التصنع .. وهى متصنعة ..

عبيـر أنــا : قلت لك ألف مرة إن هذه طبيعتها ولا حيلة لها فيها .. (*تنظر لخلفية المسرح*) هناك رجل قادم ..

يدخل المرشد وهو يضع يديه فى جيبيه وقد بدا عليه الاستمتاع

المرشـــد : لو سمحتن لى .. يبدو أن وقت الرحيل قد حان .. لقد انتهت القصة ..

عبيــرهى : أنت وسيم جدًا .. أنا مستعدة للذهاب معك إلى أى مكان .. خذنى أنا واترك هاتين ..

المرشـــد : للأسف لا أستطيع أن أكون انتقائيًا .. أنتن الثلاث تمثلن طبقات العقل الباطن لعبير الكبيرة ولا يمكن أن آخذ واحدة دون الأخرى ..

عبيـرأنــا : مفهوم .. مفهوم .. إنها الضرورة .. نحن الثلاث ..

عبير أنا عليا :ولكن إلى أين ؟ أرجو ألا تكون قصة تافهة مخصصة للتسلية فقط ..

المـرشـــد : بصراحة لا أعتبر التسلية البريئة عملاً فاسدًا ، لكنى على كل حال أحملكن إلى مغامرة واقعية من الحرب العالمية الثانية ..

عبير أنا عليا :جميل .. بُعد ثقافى لا بأس به .. ربما بطولات أيضًا ..

عبيــرهى : أنا أحب الحرب . أرجو أن يكون هناك الكثير من الدم والقتل .. أرجو أن يكون هناك ضباط شديدو الوسامة ..

المـرشـــد : هناك الكثير من كل شىء .. فقط تعالين معى وسوف تفهمن كل شىء ..

عبير أنا عليا : هيا بنا .. فقد سئمت عالم التحليل النفسى ..

عبيـر هى :للمرة الأولى أتفق معك .. وداعًا يا د. فرويد ويا د. يانج ود. أدلر .. وداعًا للعصاب والارتكاس والنكوص ومركبات النقص واللاوعى الجمعى وكل هذا الليبيدو ..

يخرج الجميع

ستار ..

تمت بحمد الله

فانتازيا مغامرات ممتعة من أرض الخيال

روايات مصرية للجيب

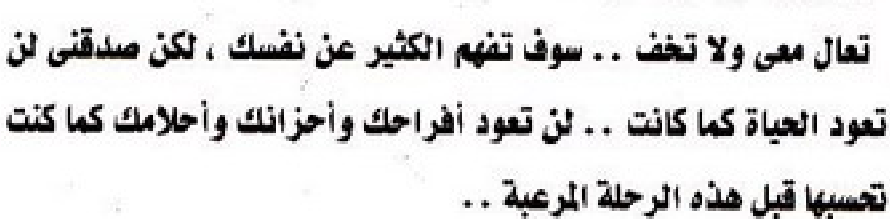
2007 / 6 / 11

هى والأنا



د. أحمد خالد توفيق

تعال معى .. مد لى يدك الباردة المبتلة بالعرق ، وتعال نخترق ذلك الظلام الكثيف الذى يقود إلى غابة عقلك الباطن .. تعال معى ولا تخف .. أنا معدوم الخبرة مثلك ، لكننا لن نكون وحدنا .. سوف نهتدي بالدكتور (فرويد) والدكتور (أدلر) والدكتور (يانج) وربما سواهم ممن قرروا أن يعرفوا كل شىء عن تلك الغابة ..



تعال معى ولا تخف .. سوف تفهم الكثير عن نفسك ، لكن صدقنى لن تعود الحياة كما كانت .. لن تعود أفراحك وأحزانك وأحلامك كما كنت تحسبها قبل هذه الرحلة المرعبة ..

العدد القادم

فلننقذ الدوتشى

الثمن فى مصر 300 قرش
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



